

الفصل الأول

حملات الملك عموري على مصر حتى عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ

- ملامح من حياة عموري الخاصة ودوره السياسي قبيل تنويجه ومشاكل اعتلائه العرش.
- الحملة الأولى (١١٦٣م/٥٥٨هـ).
- الحملة الثانية (١١٦٤م/٥٥٩هـ).
- الحملة الثالثة (١١٦٧م/٥٦٢هـ).

قاد الملك عموري عدة حملات ضد مصر بصفته مساعداً لوزيرها شاور وحليفاً له ضد شيركوه قائد نورالدين، وقد انتهت المرحلة الأولى من تلك الحملات عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ بتحقيق عموري بعض المكاسب في مصر ربما كانت قمة ما وصل إليه من نجاح فيها، ولعل أهم ما يميز حملات هذه الفترة عن مثيلاتها أن عموري كان ملبياً لنداء شاور ضد شيركوه، وذلك باستثناء حملته الأولى عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ التي

لم يكن لها أصداء حملاته الأخرى على مصر، وعليه فقد أفرد الباحث هذه الحملات في هذا الفصل وقدم لها بالحديث عن شخصية الملك عموري ودوره السياسي قبيل اعتلائه العرش إضافة إلى إيضاح نوع المشاكل التي اعترضت تتويجه.

يُعدّ عموري - على المستوى الشخصي - من الشخصيات المميزة والمحيرة التي حكمت المملكة، وتنبع الحيرة عن أوحدية المصدر الذي يُعالج عصره، بحيث يوجد في وصف وليم الصوري لشخصية عموري بعض التناقض المقرون بالحب والتحيز، يجد معه الباحث صعوبة في الدخول إلى عقلية عموري؛ وذلك من أجل التعرف على الدوافع التي تصرف على أساسها في سياسته الخارجية.

وعموري هو الابن الثاني للملك فولك دانجو، وُلد عام ١١٣٥م/٥٢٩-٥٣٠هـ وأصبح كونتاً ليافا ثم ليافا وعسقلان معاً عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ في ملكية أخيه الملك بلدوين الثالث، وقد تزوج عموري للمرة الأولى قبل أن يعتلي العرش من أنياس دو كورتناي ابنة جوسلين الثالث كونت الرها، وذلك برغم معارضة فولشر بطريك بيت المقدس، بسبب صلة القرابة التي تربط عموري بأنياس، كما كانت أنياس أرملة لرينالد صاحب مرعش قبل زواج عموري منها، بحيث كان عموري يصغرها بكثير حينما تزوجها، وأثمر هذا الزواج عن إنجاب بلدوين الرابع الذي سيصبح ملكاً فيما بعد إضافة إلى ابنة أخرى تدعى سبيلا.

و ينم وصف وليم الصوري للكونت عموري عن تمتعه "بالحصافة والرشد والخبرة بالشئون الدنيوية...وتفوقه على جميع أشرف المملكة في حدة الذكاء وحضور البديهة، فساس الأمور بحزم وفطنة أبان الأزمات الكثيرة التي وقعت في أثناء محاولاته القوية المستمرة لمد حدود مملكته.. وهو كثير الصمت، بارد الأعصاب، لا يهتم لمن يسبه - وإن كان من أدنى الناس - شجاعاً وجريئاً في معاركه، بارداً وحاسماً في قيادته، وقد اكتسب من مداومته لقراءة التاريخ خبرة بمشاكل الشرق وسياساته. وبالرغم من طباعه العادية في الطعام والشراب فإنه كان مفرطاً في السمنة ومتوسطاً في الطول، ومغرمًا بالمطاردة والصيد والمطالعة، بيد أنه لم يكن في عذوبة

معشر أخيه بلدوين الثالث أو دماثة خلقه^(١).

ويصف إرنول عموري بأنه " كان رجلاً رشيداً وحكيماً وفارساً جيداً^(٢)"، على حين رأى فيه الرحالة فيلكس فابري Felix Fabri رجلاً "يتصف بالحكمة الدنيوية ربما ليس متفناً ثقافية عالية بيد أنه كان حكيماً وحذراً في عمله ووهبه الله عبقرية وذاكرة قوية، وربما لا يمكن نكران أنه كان جشعاً في حبه للمال بيد أنه كان جباراً في الحرب^(٣)"، أما المؤرخون المسلمون - وعلى رأسهم ابن الأثير - فقد أطلقوا عليه "مُري" وكان من رأيهم فيه أنه "لم يكن للفرنج منذ ظهوروا بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاءً^(٤)"، وهنا تكمن بعض سمات التناقض أو عدم الوضوح فيما كتبه وليم الصوري عن مليكه^(٥)، بحيث لا يكاد يُطالع وصفاً مثل وصف ابن الأثير السابق لديه، بل ربما يُطالع في كتاب وليم الصوري بعض محاولاته لتبرير معظم سياسات عموري وتصرفاته أو الدفاع عنه، بإلقاء التهم على من حول عموري وتحميلهم مسؤولية بعض نتائج تصرفاته التي لم تكن في موضعها أو كان من الممكن تجنبها، وقد يلجأ إلى أسلوب المرواغة في إطلاق أحكام عامة دون أن ينسبها إلى عموري بشكل مباشر ولكنه يضع في معنى روايته ما يؤكد مسؤولية عموري.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص١٧-٢٠. وانظر أيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548.

(٢) Ernoul, *Chronique*, p.18.

(٣) Fabri, *The Book of Wandering*, p.328.

أما عن ثقافة الملك عموري فالراجح أنه استفاد من المكتبة التي ورثها عن أخيه بلدوين الثالث التي يرجح احتوائها على كتب الأمير أسامة بن منقذ التي استولى عليها من المركب الذي أفلّ أسرة أسامة من مصر إلى بلاد الشام، وكانت تقدر بأربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة في الآداب والعلوم الأخرى. انظر: أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص٣٤-٣٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٩٥. وأيضاً: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٣٩٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٩٠.

(٥) والواقع أن وصف وليم الصوري للملك عموري وجل ما كتبه عنه مهم للغاية سواء في إثبات ما للملك عموري أم ما عليه؛ وذلك لأن وليم الصوري كان يعد نفسه صديقاً لعموري، وقد صرح بأنه هو الذي كلفه بكتابة تاريخه عن المملكة والصليبيين، ناهيك عن ذلك معاصرة وليم الصوري لهذه الأحداث واطلاعه المباشر على وثائق المملكة وأرشيفها ومكتباتها.

هذا ما له أما ما أخذوه عليه فتمثل في أنه لم يحظ بشعبية أخيه بلدوين الثالث "إذ كان ينفصه المزاج اللطيف مع ندرة كلامه، كما تعوزه البشاشة التي ربما كان الأمراء أكثر احتياجاً لها من بقية الناس كي يكسبوا حب رعاياهم، فضلاً عن عدم محاسبته لرجاله مدعياً أنه يثق بهم"^(١)، بل ربما كان يستفز الشعور العام أحياناً بتعيينه رجلاً لا يستحقون أن يعينوا في مناصب رفيعة^(٢). ومن الوجوه الأخرى التي يرى فيها الباحث شيئاً من عدم الوضوح والتباين في وصف وليم الصوري للكونت عموري نَعْنَه له بأنه كان ابناً باراً بالكنيسة وأنه اعتاد أن يؤدي لها ضريبة العشور، ثم يردد بعد ذلك أنه ناهض حرية الكنائس، بحيث اشتكى الكهنة من انتهاكه غير القانوني لحقوقهم وممتلكاتهم، ولم تكن الضرائب التي فرضت على الممتلكات مقبولة، ومرة أخرى ييرر وليم الصوري مسألة الضرائب - على لسان عموري - بأنها كانت للضرورات الحربية^(٣).

وفيما يتعلق بدور عموري السياسي قبيل اعتلائه العرش فيشار إلى ملمحين كان لهما فيما بعد أثر غير مباشر في سياسته الخارجية؛ إذ كان عموري كونتاً لمدينة يافا في سن صغير - ربما قبل الخامسة عشرة من عمره - حيث أقطعه إياها أخوه الملك بلدوين الثالث بعد أن نصبه فارساً عام ١١٥١م/٥٤٦هـ^(٤)، وحينما قامت الحرب

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٨.

(٢) ومن هؤلاء الأشخاص ميلو دو بلانسي رئيس موظفي بلاط الملك عموري الذي كالم له وليم الصوري العديد من التهم مريحاً بذلك كاهل عموري من مسؤوليته عنها. وميلو دو بلانسي شخص طائش غير رزين، أعطاه عموري حصن مونتريال وقد ورد ذكره في إحدى وثائق المملكة منذ عام ١١٦٨م (انظر في ذلك: Rohricht, *Regesta*, no. 452) حال تعيينه موظفاً كبيراً في البلاط بتاريخ ٢٠ من أغسطس ١١٦٩م (راجع: Rohricht, *Regesta*, no.466) ثم ظهر بدون هذا اللقب منذ عام ١١٧٣ حتى ٣ من يوليو ١١٧٤. انظر:

Rohricht, *Regesta*, no. 417,415 488; Roziere, *Cartulaire*, pp.227-229, no.124.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٩. وانظر أيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٣٤، ج٤، ص ١٨؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت

الأهلية بين الملك بلدوين الثالث وأمه الملكة ميليسيند (١١٤٩-١١٥٢م) فقد اتخذ عموري جانب الملكة ميليسيند؛ لأن يافا كانت ضمن الأماكن الخاضعة لسيطرة الملكة.

ولا يذكر وليم الصوري شيئاً محدداً عن أي دور للكونت عموري خلال أحداث الاستيلاء على عسقلان عام ١١٥٣م/٥٤٧هـ، وإن حصل على نصيب الأسد فيما وزعه الملك بلدوين من الأراضي التابعة لعسقلان في الجنوب عقب الاستيلاء عليها عام ١١٥٣م؛ إذ منح بلدوين عسقلان لعموري أيضاً مضافة إلى يافا^(١)، ويُظهر تصرف الملك بلدوين الأخير أنه لم يعاقب عموري على مشاركته لأمه في أحداث الحرب الأهلية ضد الملك ذاته؛ إذ ذُكرَ عموري كونتاً ليافا في وثيقة للملكة ميليسيند^(٢)، كما يُشارُ إلى عموري على أنه كونتاً لها أيضاً خلال زيارته للإمبراطور مانويل أمام أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ ومرة أخرى في أثناء تكميده لابنه بلدوين الرابع عام ١١٦١م/٥٥٧هـ^(٣)، لكنه ذُكر بعد عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ بقليل بوصفه كونت عسقلان فقط بدون يافا مما يعني أنه حُرِم من كونتية يافا في ذلك الوقت.

ولكن لا يبدو ذلك دقيقاً؛ لأن عموري منح امتيازات في يافا عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ^(٤)، مما يعني أنه كان كونتاً ليافا في ذلك العام، أي أنه استردها مرة أخرى، بيد أن وليم الصوري لم يحدد الوقت الذي منح فيه الملك بلدوين لأخيه الكونت عموري عسقلان، ومن جهة أخرى أشار وليم إلى قيام الملك بلدوين بتوزيع الأراضي حول عسقلان بنفسه عقب استيلائه عليها عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، وهي المهمة التي ينبغي أن يقوم بها عموري إذا ما كان كونتاً لها، لذا فالراجح أن الملك بلدوين لم يُقطعه

المقدس، ص ٦٢.

(١) Ernoul, *Chronique*, p.14.

(٢) Rohricht, *Regesta*, no. 359.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٢، ٩٥، ٤٣٣، ٤٢٢.

(٤) Rohricht, *Regesta*, no. 324; Müller, *Documenti Sulle Relazioni Delle Citta Toscane Coll ' Oriente Cristiano e coi Turchi Fino all' anno*, MCXXXI (Florence, 1879, Rome, 1966), p.8, no.6.

عسقلان بعد الاستيلاء عليها مباشرة، ومن جهة أخرى أشير إلى عموري في إحدى وثائق المملكة عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ بوصفه شقيق الملك *Amalricus "Frater Regis"*^(١)، وهنا يؤكد ماير أنه لا بد من قبول افتراض أن عموري الذي أشير إليه قبل عام ١١٥٢م/٥٤٧هـ - وهو العام الذي حدثت فيه الحرب الأهلية بين الملك بلدوين وأمه التي وقف عموري إلى جوارها ضد الملك - بوصفه ابن الملكة " *Filius Reginae*" ثم بوصفه كونتاً ليافا، أنه قد خسر الأخيرة عام ١١٥٢م/٥٤٧هـ، ولم يستردها إلا بعد عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، كما أنه لم يحصل على يافا في الوقت ذاته الذي حصل فيه على كونتية عسقلان، ويؤكد ماير ذلك بإشارته إلى وثيقة مؤرخة في ٣٠ من يوليو ١١٥٤م/١٧ من جمادى الأولى ٥٤٩هـ تشير إلى استعادة عموري ليافا ثم أضيف إليها عسقلان، وقد أشار إرنول - المطلع على بواكير القرن الثالث عشر - إلى ما يؤيد ذلك، حينما أقر أن عموري تسلم كلاً من يافا وعسقلان عقب استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان وذلك في وقت ما من عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ^(٢)، وليس كما هو معتقد شائع عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، ومن ثم فقد عانى الكونت عموري لفترة قصيرة من الغضب الذي سببه لأخيه الملك بلدوين الثالث بوقفه في صف الملكة ضد الملك^(٣).

أما الدور المهم الآخر الذي ظهر به عموري على مسرح الأحداث قبيل تنويعه فممثل في قيامه بزيارة الإمبراطور مانويل في قيليقية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، ولاريب أنها المرة الأولى التي رأى فيها الكونت عموري الإمبراطور البيزنطي الذي استقبله بما يليق به وعندما انتهت زيارته رده الإمبراطور محملاً بالهدايا^(٤). وهنا ربما لم يكن

(١) Rohricht, *Regesta*, no. 293.

(٢) Ernoul, *Chronique*, p.14.

(٣) Mayer, "Studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem", *DOP.*, XXVI, 1972, reprinted in *Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, (Jerusalem, 1983), pp.175-176, 182.

(٤) (٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٣٣. وكذلك:

Smbat, *La Chronique*, pp.45-46.

عموري يعرف ما تنطوي عليه الأيام وأنه سيصبح يوماً ما ملكاً على مملكة بيت المقدس، بيد أنه لمس الترف البيزنطي والدبلوماسية العتيقة التي تمتع بها عاهلها، وعليه فإن هذين الملحين أهم ما في تاريخ عموري، وجوده في يافا وتصديه للمسلمين خلال وجودهم في عسقلان قبل عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ ثم بوجوده في عسقلان ذاتها عقب استيلاء الملك بلدوين الثالث عليها، وزيارته للإمبراطور البيزنطي في سهول قيليقية، وهما ملمحان ربما كان لهما أثر في إلهام عموري بأساس ما لسياسته الخارجية.

وعن اعتلاء عموري للعرش فإنه حينما مات الملك بلدوين الثالث في العاشر من فبراير ١١٦٣م/الخامس من ربيع الأول ٥٥٨هـ دون أن يترك ابناً يعقبه في الملكية كان أخوه الكونت عموري المرشح الشرعي الوحيد لخلافته على العرش^(١)، وقد ألمح وليم الصوري إلى حدوث مشكلة كبيرة في المملكة ارتبطت باعتلاء عموري للعرش إذ جاء في مصدره "أدى اعتلاء عموري العرش بعد موت أخيه بلدوين إلى ظهور شقاق كبير بين بارونات المملكة....والحق أن هذا النزاع أوشك أن ينتهي إلى تصدع حاد كاد يطغى على خطر الانشقاق الديني^(٢)".

ويُوحى هذا الوصف بحدوث مشكلة كبيرة كادت أن تؤدي إلى حرب أهلية، على ما قال وليم الصوري، وهو بالطبع وصف مبالغ فيه، ويبدو أن وليم الصوري كان الوحيد الذي انفرد بذكره لهذا النزاع ثم أخذه عنه المذيلون عليه وغيرهم من مؤرخي القرن الثالث عشر أمثال إرنول، وعلى الرغم من إرجاع وليم الصوري سبب النزاع إلى البارونات المتذمرين "الذين كان تغير الملوك ذا أثر عنيف يختلف في الواحد منهم عن الآخر"، وهي تُعد سابقة ربما لم يُسمع عنها عند تنويع من سبق الملك عموري فقد حرص المذيلون على وليم الصوري على الربط بين الشقاق الذي حدث

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ٤، ص ١٥. وانظر:

Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Ernoul, *Chronique*, p.16; Fabri, *The book of Wandering*, p.328.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ٤، ص ١٦.

وبين ضرورة تطليق الملك لزوجته أنيَّاس دو كورتناي التي لم تكن محمودة السمعة في عفتها^(١)، وأضاف إرنول إلى الرواية تعليلاً جديداً لأسباب الطلاق ممثل في أن أنيَّاس لم تكن مولودة في مدينة شريفة مثل مدينة بيت المقدس^(٢) وهي ظاهرة أخرى تستحق التوقف عندها.

ولكن أين حقيقة ما حدث فيما ورد لدى هؤلاء الذين أرخوا لعصر عموري فيما يخص هذه المشكلة؟ تكمن الإجابة في نقد الآراء السالفة وتقييمها بحيث تؤدي إلى الأخذ بمسار الأحداث إلى وضعها الصحيح. ففيما يتعلق بما ذكره المذيلون على تاريخ وليم الصوري بأن أنيَّاس لم تكن محمودة في عفتها كسبب لموضوع الطلاق^(٣) فإنهم بعدوا أكثر فيما نقلوه أو أنهم ربطوا بين رواية وليم الصوري بشأن الطلاق وبين ارتقاء عموري العرش، ولاريب أنهم أغفلوا أن وليم الصوري نفسه لم يذكر الطلاق كأحد أسباب اعتراض البارونات وإنما كان الاعتراض نابغاً عن البطريرك الذي سبق وعارض هذه الزيجة، والأكثر أهمية عدم ربط وليم صراحة بين طلاق أنيَّاس وتتويج عموري^(٤).

ومن ناحية أخرى فإن مسألة العفة قرينة أخرى اعتادت رواية ذلك العصر على إيرادها في تبرير مثل تلك القضايا وهي تشبه إلى حد ما القصة التي شاعت عن ميليسيند أميرة طرابلس خلال أزمة رفض الإمبراطور مانويل لها، وهنا صار طلاق أنيَّاس ضرورة سياسية لاعتلاء عموري العرش الصليبي، وإن كان ثمة تحفظ على كثرة زيجات أنيَّاس التي لم يمض كثيرٌ على طلاقها من عموري حتى تزوجت للمرة الثالثة من جيرارد سيد صيدا ثم طُلق مرة أخرى وكان سبب الطلاق هو نفسه الذي جعل عموري يطلقها، أي درجة القرابة التي تحرّمها الكنيسة، وبالرغم من كل هذا فإن وليم الصوري لم يهتمها في عفتها وهو أمر كان من اليسير عليه تفصيله؛ لأنه تقصّى

(١) مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٢.

(٢) Ernoul, *Chronique*, p.16.

(٣) مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ٢٢.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ٤، ص ٢٣.

بنفسه في درجة القرابة وتؤكد من صحتها^(١).

ومن ناحية أخرى فإنه ليس ثمة أساس لما ذكره إرنول عن طلاق الملك لأنثياس على اعتبار كونها لم تكن وليدة مدينة شريفة مثل بيت المقدس^(٢)، وهو أمر جديد لم يكن عُرفاً مسلماً به في زواج الملوك الذين سبقوا الملك عموري، فلم تكن زوجة بلدوين الثالث سوى أميرة بيزنطة ولكنها كانت تمت بصلة قوية إلى البيت الإمبراطوري^(٣)، بينما كانت زوجات بلدوين الأول والثاني أرمنيات محليات^(٤)، أما الملكة ميليسيند زوجة فولك فإنها الاستثناء الوحيد حتى عصر عموري التي وُلدت في بيت المقدس وهي أول ملكة لاتينية تُولد في الشرق الصليبي، ومن ناحية أخرى فإن أنثياس كانت من أسرة نبيلة هي أسرة كورتناي التي حكمت الرها رداً من الزمن، مما يجعلها أفضل من غيرها في انتمائها إلى هذا النسب ومن ثم فإن التمسك بفكرة أنها لم تكن وليدة مدينة شريفة مثل بيت المقدس يُعدّ مجرد حجة واهية يصعب إقرارها.

ولا يتبقى الآن سوى رواية وليم الصوري وهي في اعتقاد الباحث متناقضة من الناحية الظاهرية، فهو يشير إلى حدوث مشكلة كبيرة كادت تصل إلى حد الانقسام الديني، ولعله كان يقصد بذلك ما يحدث في الغرب الأوربي من صراع بين البابا ألكسندر الثالث ومنافسه البابا أوكتافيان، أما التناقض فهو أن يُحلّ هذا الإشكال الكبير - حسب قول وليم الصوري - في ثمانية أيام فقط وأن جانباً كبيراً من البارونات كانوا يحبونه هم ورجال الدين، فمن الذي تمرد عليه إذن؟ لقد كان وليم الصوري في وضع حرج للغاية كي يذكر ما حدث بالفعل، فهو من ناحية صديقاً للملك عموري ومؤرخه ومعلم ابنه، ثم مستشار الملك بلدوين الرابع -ابن أنثياس وعموري- فيما بعد، ولم يُقدّر في المملكة إلا في عصري هذين الملكين أي أنه كان أسير فضليهما عليه، ولذا فالمرجح أنه حاول التلميح إلى شيء ما غير محدد بخصوص أنثياس وعموري ربما تخرج من ذكره علناً ثم ترك البقية لعقل قارئه.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ٤، ص ٢٣-٢٥.

(٢) Ernoul, *Chronique*, p.16.

(٣) Kinnamos, *Deeds*, p.160.

(٤) Aharon Ben-Ami, *Institutional Lag*, pp.411-413.

وقد يُستشف أمر آخر ربما كانت له علاقة بما قام به البارونات من مناوئة لتتويج عموري، ويُرجح الباحث هنا أن عموري حرص منذ البداية على إبداء مرونته في شكل عملي حينما استجاب لرغبات البارونات المتمردين بتطبيقه لأنثياس، ولكن لماذا؟ لأن العرش الصليبي كان مقروناً في المملكة بالانتخاب المرتبط بدعوى الوراثة^(١)، وقد حاول البارونات استخدام حقهم بوضع شروط خاصة لانتخاب الملك، ولما كانت فرصة عموري في العرش مرهونة بمسألة تطبيقه أنثياس التي أثارها البطريرك - لا البارونات - دون أن تتطور الأزمة إلى صراع حاد لا تكاد تسمح به الظروف المحيطة بالمملكة فإنه فضل أن يبدأ فترة حكمه بداية مرنة، وبخاصة أنه كان في سن السابعة والعشرين حينما رُشِّح للعرش الصليبي، وعلى حد تعبير وليم الصوري أفسد عموري نساءً متزوجات قبيل اعتلائه العرش^(٢)، ولم يكن لديه ما يجعله يتمسك بزوجته التي تُوفي أول زوج لها ولم يتعدَّ عمر عموري وقتها الثالثة عشر بعد^(٣).

أما موقف البارونات فمجرد محاولة من بعضهم بوصفهم يشكلون جزءاً مهماً في المحكمة العليا؛ لإظهار شيء من النفوذ في تلك الظروف الحرجة وهم يعلمون جيداً أن عموري لن يرفض طلباً كهذا ثمناً لعرش المملكة^(٤)، وكان رد فعل عموري ذكياً في محاولة منه لكسب الوقت حتى يتمكن من اعتلاء العرش دون حدوث أية مشاكل لا يتحملها الوضع الراهن وبخاصة إزاء ازدياد قوة المسلمين، إضافة إلى

(١) رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٩-٤٨٠. انظر أيضاً:

King, *Hospitallers*, pp.85-86; Rohricht, R., "Amalrich I Koig von Jerusalem", in *Miabeilugem des Institus fur Osterreichische Geschicisfarschung*, XII, (1891), p.432.

وقد أعيد نشر هذا البحث في كتاب للمؤلف ذاته بعنوان:

Rohricht, R., *Geschichte de Koingreichs Jerusalem*, (Innsbruck, 1898).

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص١٨.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص٩٥.

(٤) King, *Hospitallers*, pp.85-86.

خشية عموري من ازدياد النفوذ البيزنطي في أنطاكية^(١)، وعليه فإنه قرر تقويت الفرصة على البارونات ثم استصدر بعد قليل من تنويجه أول قوانينه التي أدت إلى تقوية علاقته بأتباع كبار المقطعين - أي بارونات المملكة الذين وقفوا ضده - وقد أتاح له هذا القانون توطيد علاقته بصغار المقطعين ومناوئة البارونات، ثم تقوية وضع الملك عموماً في المحكمة العليا طالما كان الملك ذاته قوياً^(٢)، وبذا استطاع عموري بشكل ما مضايقة البارونات داخل المحكمة موجهاً لهم الصفحة ذاتها، وقد تلا صدور هذا القانون قوانين أخرى لتنظيم علاقة الملك بأتباعه^(٣).

ولكن ما هو الأثر الذي أحدثته العوامل الداخلية في توجهات سياسة الملك عموري الخارجية؟ كان الاحتياج الشديد الذي تعانيه المملكة في مواردها الاقتصادية والبشرية كفيلاً بردع عموري عن القيام بحملات متكررة في الجنوب والشمال، بل إن جشع الملك ذاته داخل المملكة - بفرضه للضرائب الباهظة على الكنائس والفلاحين واغتصابه لأملاك رعاياه - إنما كان لخدمة سياسته الخارجية، وحاول عموري نفسه

(١) Amaury I, Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Rohricht, *Regesta*, no. 396.

(٢) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.22-23,99,153.

وعن أهم إنجازات الملك عموري في المجال القانوني والتشريعي انظر:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.309-310.

بينما يدعو الباحث روبرت باترسون إلى إعادة النظر في دور الملك عموري التشريعي في دراسته القصيرة والقيمة بعنوان:

Patterson, R., "The early existence of the *Funda* and *Catena* in the twelfth century Latin Kingdom of Jerusalem", in *Speculum*, (1964), pp.474-477.

راجع أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، ج-٢، ص ٤٧٦ - ٤٨٤.

وعن ملابسات تنويج ملوك بيت المقدس عموماً والملك عموري خصوصاً راجع الدراسة القيمة التي قام بها ماير عن هذا الموضوع. انظر:

Mayer, "Pontifikale von Tyrus und die Krönung der Lateinischen Könige von Jerusalem: Zugleich ein Beitrag zur Forschung über Herrschaftszichend und Staatssymbolik", in *DOP.*, XII., (1967), pp.97-232.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، ج-٢، ص ٥٨٧.

تبرير أساليبه في الحصول على المال بأنها ضرورة تقتضيها مصلحة المملكة والرعية معاً؛ لأن امتلاء خزائن المملكة يؤدي إلى الحفاظ على قوتها، وعلى النقيض يقود الافتقار إلى المال إلى إحباط السياسات الملكية ولم يكن لدى عموري نية المعاناة من ذلك^(١). ولكن ألم يكن من المفترض أن تنفق هذه الحملات على نفسها بعدما فرض عموري المبالغ المالية الكثيرة على الدولة الفاطمية سنوياً ومن ثم يُصلح حال المملكة؟ من الواضح أن الحروب التي خاضها عموري كانت كثيرة، ولم يكن لديه موارد ثابتة للإنفاق عليها لدرجة أنه هاجم مصر في حملته الأولى بحجة الحصول على الإتاوة السنوية التي فرضها بلديون الثالث على مصر ورفضت أدائها إلى عموري عقب اعتلائه العرش^(٢).

ودعت هذه الأوضاع الأمير الأرمني توروس الثاني إلى الإشفاق على المملكة التي وجدها - خلال زيارته لها - خالية من وسائل الدفاع أو من الموارد المالية، ولما سأل توروس عموري عن مصادر تمويل حملاته وحروبه ودفاعه عن مملكته أجاب بأنه يقترحها، وعندها عرض عليه توروس إمداده بثلاثين ألف رجل لاستيطان فلسطين ويكونوا وقتها في عداد قوة المملكة، وكاد الملك يقبل هذا العرض حتى اعترض عليه رجال الدين اللاتين الذين أصروا على ضرورة حصولهم على ضريبة العشر من هؤلاء الأرمن، ففضل توروس سحب عرضه معلقاً بأنه لم يأت إلى المملكة حراً لينصرف عنها تابِعاً لها^(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا وإنما تعدى إلى ازدياد نفوذ طوائف الفرسان الرهبان وتدخلهم في سياسة المملكة أو إفسادهم لسياسة الملك، وذلك بسبب اتساع ثروتهم

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص١٩. وأيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.548; Rohricht, *Amalrich I*, pp.311-312.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٥.

(٣) اندهش الأمير توروس من حقيقة أن كل أراضي المملكة وقلاعها صارت في حوزة الجماعات المسلحة بحيث لم يبق في حوزة الملك عموري سوى ثلاث قلاع فقط، ولذا فقد غضب توروس من الوسائل غير الأكيدة في الدفاع عن المملكة. راجع في ذلك:

Ernoul, *Chronique*, pp.27-29.

واستقلال قضائهم الذي كان تحت سلطة البابا مباشرة، بمعنى أن جماعات الفرسان كانت مستقلة عملياً عن سياسات المملكة وقد عمّقَ هذا من مأزق قلة عدد الفرسان في الشرق، ويتضح ذلك من الرسائل التي بعث بها كل من عموري ومقدم الداوية في أنطاكية وإيمري بطريك أنطاكية وبتريك بيت المقدس إلى لويس السابع ملك فرنسا^(١)، "فمملكة بيت المقدس تحتاج إلى إقرار المزيد من القوى والثبات... إن الضغط على المملكة الشرقية يتطلب تدخلكم"^(٢)، وذلك في محاولة لاستدرار عطفه لإمداد المملكة والإمارات الصليبية بمساعدة عاجلة، ولم يكن الغرب الأوربي بعيداً عما يحدث في الشرق اللاتيني؛ إذ أقرّ البابا ألكسندر الثالث في إحدى منشوراته إلى المؤمنين في الغرب، الموقف الضعيف الذي تعانيه مملكة بيت المقدس في محاولة منه لحث قوى الغرب على التوجه نحو الشرق لمساعدة الصليبيين "ولكن في العصر الحالي نجد أن تعداد السكان أقل مما كان عليه، إذ أضعفت كثرة المحن والزيادة السكانية، إلى جانب إنهاك هذه الزيادة وإنقاصها بسبب الهزائم المتلاحقة في الحروب... إنها تستلزم من جديد المساعدة التي اعتادت الحصول عليها من دول الغرب"^(٣).

وفي الوقت الذي شهدت فيه المملكة عجز مواردها البشرية والاقتصادية كان المسلمون يتقدمون أكثر فأكثر، ولذا فقد كان دور الجماعات الدينية مهماً للغاية في تلك

(^١) Amaury I, Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37,39-40,57; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Amalrici, patriachæ Hierosol, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.168; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.38-39.

(^٢) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI pp.38-39.

(^٣) Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, colls.599-600; Alexander III, in Richard, p71.

اللحظة مما يتضح من محاولة عموري حل مشكلة القوة الضاربة في المملكة باعتماده على جماعات الفرسان في حراسة القلاع المهمة ومرافقتهم له في حملاته، بيد أنهم كانوا يشاركونه لكونهم حلفاء متطوعين، ويلتزمون بأداء الخدمات التي يُقرّها الملك عليهم ولكن وهم يصرون على استقلالهم شأن الأمراء الكبار، في عقد معاهداتهم وإعلان الحرب وإقرار السلم دون استشارة الملك أو النظر إلى سياسته، ثم كان الصراع بين الداوية والاسبتارية أحد الأوجه المظلمة التي أعاققت مساندتهم للمملكة، بدا ذلك جلياً في انقسام القيادة الذي حدث في حملة عموري على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ حينما رفض الداوية المشاركة في الحملة، غيرة مما حصل عليه الاسبتارية من إقطاعات مبذولة مقدماً في مصر ولم يكن الملك قادراً على إجبارهم على المشاركة في حملته^(١).

حقاً أبدى عموري جرأة في معاقبة أحد فرسان الداوية عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ الذين كانوا سبباً في تقويض تحالفه مع الحشاشين بقتل أحد فرسان الداوية لرسول الحشاشين إلى الملك عموري، مخالفاً بذلك الوضع المميز لتلك الجماعة^(٢)، لكن ذلك لم يكن ليُغيّر ما حدث في وقت اشتدت فيه حاجة المملكة إلى حلفاء من داخل الجبهة الإسلامية، ومن هنا فإنه بالقدر الذي أسهمت فيه الجماعات المسلحة في إمداد المملكة بما تحتاجه من الفرسان والدفاع عن الحصون ومخالفة الملك بالقدر الذي أدت سياسات تلك الجماعات المستقلة وخلافاتها الجانبية إلى عدم إفادة المملكة منها الإفادة التامة.

ومن ناحية أخرى كان الملك يمتلك القوة النظرية داخل المملكة على حد تعبير لامونت "بيد أنه كان دائماً معاقاً في ممارسته لها، بسبب البارونات الغيورين على حماية حقوقهم وامتيازاتهم ولأنه كان مُلزماً أيضاً باستشارتهم في كافة الأمور، وحينما يستطيع الملك فرض نفسه على البارونات فإنه كان مضغوطاً بالتدخل الخارجي

(١) انظر في ذلك:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.163-165.

وانظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٠-٣١.

وكانت مملكته سيئة الحظ غير المتحدة في أحسن الأحوال ممزقة بسبب الصراع بين هؤلاء وأولائكم^(١)."

تلك هي الظروف الداخلية التي كان بإمكان عموري فهمها، ولكن ألم يكن متناقضاً أن يكون قارئاً للتاريخ ومتابعاً لمجريات أحداثه ليدرك أن حملاته على مصر جاءت في وقت تبدلت فيه الظروف المحيطة به كثيراً بحيث لا تكاد تسمح بقيامه بها؟ لقد اتحد المسلمون - وصاروا يسيطرون على بلاد الشام في جانبها الداخلي - تحت قيادة موحدة وأتباع مخلصين، بينما تبدل وضع الفرنجة الذين مالوا إلى الأخذ بأساليب الحياة الشرقية، علاوة على اختفاء روح الحماسة التي صحبت الجيل الأول للفرنجة في توسعاتهم على حساب جبهة إسلامية مفككة كلية، صار هؤلاء الآن يفضلون العيش في سلام "والحق أن الظروف قد تبدلت كل التبدل فقد كان العدو عند خروجهم في أول الأمر يخشاهم أشد الخشية وترتعد فرائصه منهم ويراهم تهديداً خطيراً له، أما الآن فقد أصبح هؤلاء العسكر... في حال يرون النصر - كل النصر - أن يعودوا سالمين إلى أماكنهم، أما العدو فقد غدا آمن السرب ناعم البال مطمئناً إلى أن يده صارت الآن هي العليا^(٢)".

وباختصار كانت الظروف الداخلية الصعبة التي عانت منها المملكة هي ذاتها الدوافع السلبية التي حركت الملك للقيام بحملاته نحو الخارج، ولم يكن ذلك جنون عظمة أو مجرد رغبة استعمارية وإنما دواع فرضتها عليه الظروف المحيطة به في وقت عانت فيه مصر من أمراض قرن أو ما يزيد من الفساد والاضطراب، وسواء نجح الملك أم فشل في تلك السياسة فإنه لم يكن لديه خيار آخر، أما عدم تقديره لأعدائه وخصومه وقوته الذاتية وموارد مملكته فإنها من مسؤوليته وسوف يتعرض لها الباحث في موضعها.

كانت أحوال مصر تتحول من سيء إلى أسوأ بسبب الصراع المألوف لرجال

(١) La Monte, *Feudal Monarchy*, p.156.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠-٧١. وأيضاً ص٣٢١-٣٢٢. وعن التحول الذي حدث في حياة الفرنج انظر: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٣١٦-٣١٧؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٠٤-١٠٦؛ أسامة ابن منقذ: الاعتبار، ص١٣٢-١٣٤.

الدولة على منصب الوزارة وقدمت فرصة ذهبية للملك عموري وكذا نور الدين للعب دور مهم في أحداث مصر آنذاك ومن هنا بدأت أولى حملات الملك عموري على مصر بعد قليل من اعتلائه العرش في سبتمبر ١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ.. ولم يكن خروج ضرغام على الوزير شاور سوى دين لم يُوفّه الأخير إلى بني رزيك^(١)، وفي الوقت ذاته لم تكن الحادثة الفريدة التي حدثت في تلك الفترة، لأن بني رزيك أنفسهم اعتلوا الوزارة على حساب عباس وابنه نصر، وهذا أخذها على حساب ابن السلار وهكذا^(٢)، بيد أن شاور كان يختلف عن سبقة من وزراء مصر الذين طردوا من الوزارة في كونه الوحيد الذي خرج من الوزارة ثم عاد إليها، وكانت له سابقة استند إليها في عودته إليها؛ لأنه كان أحد رجال رضوان بن الولخشي، الوزير الفاطمي الأسبق للخليفة الحافظ الذي طُرد من الوزارة، فذهب إلى بلاد الشام للحصول على مساعدة عماد الدين زنكي في حلب للعودة إلى منصبه، وكان شاور مرافقاً له في تلك الرحلة، بيد أنه لم ينجح بسبب طغتكين حاكم دمشق الذي أفسد له مخططاته بمساعدة أسامة بن منقذ خوفاً من حدوث أي تحالف بين حلب ومصر، ربما أرق مضجع طغتكين في دمشق، ومن ناحية أخرى سعى الوزير ابن السلار بعد قليل إلى الاستعانة بدمشق للعودة إلى وزارته أيضاً ولكنه فشل في ذلك^(٣).

بيد أن وضع دمشق الآن تبدل عن المرة الأولى التي ذهب فيها شاور مع

(١) راجع ملامح صراع الوزراء على الوزارة لدى: عمارة اليميني: النكت العصرية، ص ٦٦،

١١٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٨١؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٥٦-٣٥٨.

(٢) عن هذه الأحداث انظر: أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ٣٨-٣٣؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣،

ص ٢٦٠-٢٦١؛ ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ١٠٣-١٠٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ١١٣-١١٤.

(٣) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٣٨-٣٣؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٠-٢٦١. وعن

صراع شاور وضرغام المشهور على الوزارة انظر:

ابن شداد: النوادر، ص ٢٣؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٧؛ الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة

الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٨م، ج ١٣، ص ٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،

ج ٥، ص ٣٣٨-٣٤٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٢-٤٤٤؛ ابن أبيك: الدر المطلوب،

ج ٧، ص ١٨-١٩، ٢٥-٢٦؛ ابن الوردي: تاريخه، ج ٢، ص ١٠٣-١٠٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول،

١١٣-١١٤.

رضوان ابن الولخشي؛ إذ كانت فيما سبق بؤرة لحكومة مستقلة وترى المصلحة في معاهدة الصليبيين في المملكة ومهادنتهم، مخافة امتداد نفوذ أمراء حلب والموصل إليها، ولذا فإنها لم تكن تملك قراراً خطيراً كهذا لأنه يعني أن تُوضع بين شقي الرحا إذا ما تغيبت قوتها الأساسية في جبهة بعيدة مثل مصر، علاوة على أن مواردها البشرية والاقتصادية لم تكن تسمح بتقديم مثل تلك المساعدة، أما الآن فإنها أصبحت جزء من تحالف كبير صار يجمع كل بلاد الشام لأول مرة منذ الغزو الصليبي، ولم يكن همّ نورالدين - قائد هذا التحالف - سوى تفويض الكيانات الصليبية، وكانت وسيلته في تحقيق هذا الحلم توحيد المسلمين تحت قيادته، ولم تكن مصر بمنأى عن هذا المشروع الكبير أو على الأقل لم تكن برغم ما تعانیه من ظروف بعيدة عن ذهن نورالدين، ولهذا بعض الدلائل منها الرواية التي أوردها المقرئزي عن كتابة الخليفة العباسي المقتفي لأمرالله عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ "عهداً لنورالدين محمود بن زكي صاحب دمشق بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب زحف وأمره بالمسير إليها، لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر^(١)".

وبالرغم من عدم وقوف الباحث في المصادر التي أرخت لعصر نورالدين على ما يؤكد هذه الرواية وعدم اتخاذ الأخير أية إجراءات تالية لأمر الخليفة فإنها إشارة ضمنية على وجود ما يربط بين مصر ودمشق في تلك الفترة^(٢)، ومن ناحية أخرى لم يكن هذا الأمر الوحيد الذي أبدى به نورالدين اهتمامه بمصر، ففي تفسير منطقي لمصطفى الحيارى عن هذه النقطة أقر أن نورالدين كانت له عيون في مصر التي كانت تبعث إليه بأخبارها أولاً فأول، وأن من هؤلاء زين الدين ابن نجا الواعظ الذي نقل إلى نورالدين - عن شيخ مصري مُسنّ - أنه سوف يأتي إلى مصر ويستولى عليها، واتخذ الحيارى من المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين نورالدين وطلّاح بن

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج-٣، ص٢٢٣.

(٢) Yaacov Lev, *Saladin in Egypt*, (Leiden, Boston, Köln, 1999), pp.55-56.

رزيك تمهيداً لغرض الخليفة المقتفى وبداية لتنفيذ الأمر على ضوء القدرات الواقعية^(١)، وذلك ما يدعّم أن مصر لم تكن بعيدة عن نور الدين، على الأقل من الناحية النظرية، وإذا اتُخذت إشارة المقريري بشأن رسالة الخليفة على أنها قرار عاطفي تبع ضم نور الدين لدمشق وللوضع السياسي المزري الذي تعانیه مصر، بحيث لم يكن ليُنْفَذَ أمر الخليفة في ذلك الوقت، فإنها في الوقت نفسه تشير إلى وجود الفكرة ذاتها سواء لدى الخليفة أم لدى نور الدين^(٢).

أما الأمر الذي يستدعي الاستفسار فهو سبب اتجاه شاور الرجل الفطن اللبيب الذي تلاعب بعدئذ بأكبر قوتين في بلاد الشام - وهما عموري ونور الدين - إلى نور الدين وهو على علم بما قد يترتب على ذلك من أحداث قد لا تعيده إلى مصر وربما تفقده حياته، علاوة على عدم محاولته الاستفادة من معسكر محايد مثل معسكر الملك عموري مثلما فعل فيما بعد؛ إذ كان عموري مناسباً لأغراض شاور لأكثر من وجه فهو أقل قوة من نور الدين بحيث يستطيع التخلص منه إذا ما أعاده إلى الوزارة بعكس حال نور الدين، والوجه الآخر أن عموري كان قد وصل إلى مصر بالفعل في حملته الأولى عليها في سبتمبر ١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ عقب توليه العرش بستة أشهر تقريباً، وفي الوقت الذي وقعت فيه أحداث طرد شاور من الوزارة على يد ضرغام، وكان شاور في موضع ما بمصر حينما هاجم عموري مصر، بين عشيرته من العرب "اختبأ هناك بين خاصته في انتظار ما ينجلي عنه الموقف وتتمخض عنه الحرب، وكان يطمع أن تسعفه قريباً الفرصة الطيبة ليقلب فيها المائدة على منافسه"^(٣)، وتشير هذه الرواية التي تنم عن تفهم وليم الصوري الجيد لنيات شاور إلى استعداد شاور لاستغلال أية فرصة كي يعود إلى الوزارة.

ولكن قبل أن يمضي الباحث في هذا فإنه يوجد سؤال آخر يفرض نفسه على

(١) مصطفى الحيارى: صلاح الدين القائد وعصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٥٧-٥٩.

(٢) انظر في ذلك: المقريري: اتعاط الحنفا، ج-٣، ص ٢٤٥.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج-٤، ص ٢٦.

الدراسة وله صلة بالإجابة على التساؤل الأول وهو لماذا هاجم عموري مصر في تلك الفترة (سبتمبر ١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ)؟ هل كان على علم بالوضع الذي تمر به مصر من صراع بلغ ذروته بطرد شاور من الوزارة؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم ينسق جهوده مع شاور على افتراض أنه في حاجة إلى المساعدة طالما ينوي العودة إلى الوزارة بقوة خارجية؟ تشير المصادر - للوهلة الأولى - إلى أن عموري قدم بتلك الحملة إلى مصر للمطالبة بالأموال المقررة للمملكة على مصر سنوياً التي رفض المصريون دفعها لرسل عموري، وهو المال الذي سبق وتعهده طلائع بن رزيك بدفعه للملك الراحل بلدوين الثالث، بيد أنها حجة ظاهرية وتنطوي على عدم معرفة بما حدث في مصر بالفعل، ومن ناحية أخرى تأتي معظم الروايات التي عالجت خبر هذه الحملة في صورة مقتضبة لا تقارن بما ذكر عن حملات عموري الأخرى وذلك ما يصعب من معرفة الحقيقة.

إذ لا ريب أن المصادر الغربية والشرقية قد اتفقتا على موضوع المال المقرر الذي جاء نتيجة لتهديد بلدوين الثالث بغزو مصر عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ^(١)، ولكن في الوقت الذي قدّر فيه المقريري ذلك المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف دينار^(٢)، قدره ميخائيل السرياني بمائة وستين ألف دينار^(٣)، وهو مبلغ كبير يصعب أن تتعهد به خزانة حاوية كخزانة الدولة الفاطمية، وأياً ما كان المبلغ فإنه لا يُعقل أن يقود الملك عموري جيوش مملكته لمهاجمة بلدة بعيدة ربما تعرضت فيها مسيرة جيشه وخطوط إمداداته إلى اعتداءات المسلمين في بلاد الشام، علاوة على ما يمكن أن تتعرض له المملكة ذاتها

(١) المقريري: اتعاط الحنفا، ج٣، ص ٢٥٩؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٥-٢٦. انظر أيضاً:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.436-437; Richard, *Le Royaume Latin de Jérusalem*, (Paris, 1953), p.52; Schlumberger, *Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte*, (Paris, 1906), pp.41-42.

(٢) المقريري: اتعاط الحنفا، ج٣، ص ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤.

(٣) Michel Le Syrien, *Chronique*, III, p.358.

من مشاكل خارجية من قِبَل نور الدين^(١)، ومغامرة مجهولة في بلد كبير مثل مصر كل ذلك للحصول على الإتاحة، ومن ناحية أخرى يصعب تفهم قيام عموري بحملته عقب تتويجه مباشرة^(٢).

إن هذه المداخلات تستدعي توسيع دائرة النقاش، إذ ارتبطت هذه الحملة في بعض جوانبها بالسياسة التي طالما سعى ملوك بيت المقدس إلى تحقيقها منذ جودفري وبلدوين الأول، وهي استكمالاً للخطوة التي اتخذها بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ التي كانت في اعتقاد الفرنج مفتاح الديار المصرية، وأنها سَتُغَيِّرُ المجرى العام للأحداث التي كانت تتجه دائماً صوب الشمال لتسير اليوم وفيما بعد نحو الجنوب، ولم يكن ذلك سوى الحل الذي قد يؤدي إلى اتزان وضع الصليبيين، وإضافة إلى ذلك ارتبطت تلك الحملة من جانب آخر بالخبرة التي اكتسبها الكونت عموري من خلال حكمه في يافا وعسقلان وهما أقرب ما تكونا من مصر، وأشير إليه عرضاً في التصدي للهجمات التي وجهتها الحكومة المصرية إليه وتبادل وإياها النصر والهزيمة، ومن ثم كان الملك عموري مميّزاً لحقيقة ما يجري في مصر ومدركاً لكم الاستفادة التي تنجم عن ضمها إليه بعيداً عن شمال بلاد الشام الذي لم يعد فيه منفذاً للتحرك، بسبب كل من نور الدين ومانويل اللذين فرضا سيادتهما هناك.

وكانت مصر ملتزمة بالفعل للصليبيين بمبلغ سنوي ولكن لم يسبق لها أن دفعته، إذ تؤكد المصادر ما ذكره رنسمان عن عدم دفع مصر للمملكة أية مبالغ في تلك الفترة^(٣)، وبالرغم من ذلك فقد بعث عموري رسله للمطالبة بذلك المال، فوصلوا مصر في الوقت الذي انفجر فيه الصراع الأخير للوزراء على من يلي الوزارة، ولم يكن عموري أسفاً على عودة رسله بدونها قدر فرحته بالأخبار التي عادوا يبشرونه بها عن طرد ضرغام لشاور^(٤)، فلم يُضَيِّع وقتاً؛ إذ أمر بحشد كافة قوى المملكة تاركاً

(١) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Rohricht, *Regesta*, no.382.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٥.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٩٢.

(٤) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص٢٥٩.

إياها عُرضةً لهجمات نور الدين الذي كان يخطط لمهاجمة حارم^(١).

ويبدو أن عموري واجه صعوبة في تمويل هذه الحملة؛ إذ يتضح من الخطابات التي بعث بها عموري ومقدم الداوية وبطريك أنطاكية إلى الملك لويس السابع أن المملكة كانت تعاني من شطف العيش وأنها في حاجة إلى دعم عاجل مثلما كانت تحصل عليه أيام بلدوين الثالث، ومن ناحية أخرى لم يخبر عموري الملك لويس في أولى رسائله إليه أنه ينوي غزو مصر، ولم يفعل ذلك إلا في خطاب آخر في أثناء وجوده في مصر بالفعل بعدما أيقن كم الصعوبات التي يواجهها^(٢).

وفي تقدير الباحث أن الملك عموري كان يأمل في هذا الوقت المبكر من حكمه في حملة صليبية كبيرة مثل الحملة الثانية التي جاءت في عصر أخيه الملك بلدوين الثالث، وكان يطمع من ورائها في غنيمة أكبر من دمشق وهي مصر، بيد أنه فشل في مساعاه، ومن جهة أخرى فإن الظروف الداخلية والخارجية التي واجهتها المملكة في بداية عصر عموري كانت ميراثه عن أخيه، ولم يطرأ عليها أي تغيير إلا بعد موقعة حارم ولم ينتج ذلك إلا عن تحرك عموري نحو مصر في حملته الثانية عليها، وبمعنى آخر كانت رسائل الاستغاثة التي بعث بها عموري في هذه المرحلة نوعاً من الدعايات التي رغب بها الحصول على جيش كبير من الغرب، ولما لم يكن في المملكة ما يدعو إلى هذا الاستدعاء فالراجح أن عموري كان ينوي التوجه بهذه الحملة إلى مصر، أما عدم إفصاحه عن هذا الهدف في خطابه الأول إلى لويس السابع فلأنه لم يكن قد قرر

(١) ابن الأثير: الباهر، ص ١٠٩، ١١٦.

(٢) عن المشاكل التي واجهها الملك عموري في حملته الأولى على مصر وموافقة الخطابات الأخرى لما ورد في خطاباته هو انظر:

Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.36-37; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.37-38; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in =RHGF, t.XVI, pp.61-62; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp. 80-81.

بعد التوجه إلى مصر، ومن ناحية أخرى لم يكن في حسبانها أنه سيلقى فيها المقاومة التي تصدى لها بها ضرغام، ربما لأن فكرته عنها لم تكن عن تقدير واقعي لقوتها الحقيقية، وعليه فقد قرر في أثناء المغامرة أن يستغيث بمساعدة الملك لويس السابع.

أما مسألة تمويل الحملة التي تحرك بها صوب مصر فإنها دليل على أن المملكة لم تكن بهذا الضعف الذي صوّره خطاب الملك، بل كان الغرب يبعث إلى المملكة بالمساعدات التي وإن كانت قليلة فإنها ثابتة، وقد وصلت بعض هذه المساعدات عقب رحيل عموري إلى مصر وبعد عودته عنها^(١)، ومن ناحية أخرى يرجح استفادة عموري من جماعتي الداوية والاسبتارية؛ إذ كان مقدم الداوية في أنطاكية أحد الذين يساندون الملك عموري بالكتابة إلى لويس السابع لإرسال المساعدة، ولم تكن جماعة الإسبتارية معارضة لأي من سياسة الملك عموري حتى وفاته^(٢)، كما يُرجح استفادة عموري من القانون الذي سنّه لصالح الأتباع الصغار في بداية حكمه بدعمهم له.

أيّ ما كان الأمر فقد كان من حظ عموري أن يدخل مصر وقد أبعد ضرغام شاور عنها^(٣)، وحدثت عدة اشتباكات بين عموري وضرغام قرر عموري على إثرها كثرة أعداد عدوه ولكنه تغلب على ضرغام في النهاية، وكان لديه الوقت الكافي للتفكير ملياً في مصير مصر مما يتضح من رسالته إلى لويس السابع، والرسالة في حد ذاتها تعبير عن المأزق الذي وضع عموري نفسه فيه؛ لأنه كان يطلب من لويس سرعة إنجاده لإتمام غزو هذه البلاد^(٤)، وحينما عجزت وسائل ضرغام عن التصدي للملك عموري فإنه استغل جهل الصليبيين بالظروف الجغرافية والطبيعية لمصر وفجر الجسور التي تحجز مياه الفيضان خلفها فأغرقت الأراضي وتسببت في تراجع

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٣٠-٣٣. انظر أيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp. 21-22.

(٢) King, *Hospitallers*, p. 87.

(٣) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص ٧٥؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦٢.

(٤) Amalrici, *Regis Hierusalem, ad Ludovicum*, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Rohricht, *Regesta*, no 382; Michel Le Syrien, *Chronique*, t. III, p.317.

الملك^(١)، وكان ضرغام يُشرِّع لشاور فيما بعد سنة الإفاضة من الظروف الطبيعية لهذا البلد، ولم يكن أمام الملك سوى العودة إلى المملكة^(٢). ويُوحى أحد خطابات عموري بأنه انسحب من مصر بعد هزيمته لضرغام واضطرار الأخير إلى قبول الهدنة وإقراره بدفع مبلغ سنوي للمملكة مما جعل عموري ينسحب من مصر^(٣).

ولعل عموري كان يجد عزاءً في فشل حملته بأن يصل إلى اتفاق مع ضرغام في مصر بالحصول على المال المقرر سلفاً، وأنه سيكون بإمكانه الوصول إلى اتفاق أكبر، وقد أقر المقريري أن رسل عموري جاءوا في مستهل السنة التالية من حملته - أي عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ - لمطالبة ضرغام بمال الهدنة التي تقررت بينه وبين الملك، مما يعني وجود اتفاق نجم عن حملة عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، بيد أن ضرغام انشغل عن رسل عموري بمحاربة شاور وشيركوه^(٤).

ولكن لم يُشر وليم السوري إلى حدوث اتفاق بين الملك وضرغام ولكنه أشار

(١) عن ما يحدثه الفيضان في مصر في ذلك الوقت يقول ياقوت الحموي 'فاإذا استوى الماء كما ذكرناه في المقياس من هذا الكتاب أطلق حتى يملأ أرض مصر فتبقى تلك الأراضي كالبحر الذي لم يفارقه الماء قط والقرى بينه يمشي إليها على سكور مهياة والسفن تخرق ذلك فإذا استوفت المياه ورويت الأرضون أخذ يتقص في أول الخريف وقد دبر الهواء وانكسر الحر" وهذا يعني أنه كان من الصعب على عموري في ظل جهله بتلك الظروف وجهله بجغرافية مصر أن يستمر في حملته. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٣٥.

(٢) انظر: وليم السوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٥-٢٦؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤٦؛ المقريري: الخطط، ج٢، ص٤٧؛ اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٢-٢٦٤؛ عمارة اليمنى: النكت العصرية، ص٧٥. وأيضاً: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٤؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١٤. انظر أيضاً:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Grégoir Le Prêtre, Chronique, p.198; Fabri, *The book of Wandering*, p.328. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.436-437; Schlumberger, *Campaignes*, pp.41-42.

(٣) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(٤) المقريري: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٢، ٢٦٤.

إلى الانتصار الرائع الذي حققه عموري^(١)، وهذا ما يدعو إلى تأويل الأمر على محمل فرض الملك على ضرغام مبلغ مالي جديد أو الاقتصار على دفع ضرغام للمبلغ القديم مقابل حصوله على الهدنة، أما الدليل على ترجيح عقد الهدنة بإشارة وليم الصوري عن قبول ضرغام زيادة المبالغ المالية التي اتفق عليها مع الملك في مقابل الهدنة، ثم وصول رُسُل الملك عموري في بداية العام التالي (١١٦٤م/٥٥٩هـ) "في طلب مال الهدنة فماتلهم ضرغام ودافعهم"^(٢) وهذا يقتضي ضمناً حدوث نوع من التفاهم الذي رحل عموري على أساسه من مصر.

ولكن أين كان شاور من تلك الأحداث؟ لم يكن بعيداً عن أرض المعركة التي دارت بين عموري وضرغام، وإن لم يشارك فيها ولعله انتظر حدوث مفاجأة ربما أعادته إلى وزارته كقتل ضرغام أو ما شابه^(٣)، أما ما يستدعي الفضول فإنما أسباب اتجاه شاور إلى نورالدين وهذا يجز الباحث إلى التساؤل الأول وهو الأمر ذاته الذي يدعو إلى تأكيد فرضية رحيل عموري عن مصر على أساس اتفاق ما مع ضرغام مما منع شاور من الاتصال بالملك عموري، وبخاصة في هذه الفترة التي لم يقرر فيها بعد مسألة الاستعانة بقوى أخرى لإعادته إلى الوزارة بدليل بقاءه في مصر، ولذا فإنه كان في عوز إلى الاحتفاظ بأحد الأوراق الراحبة في يديه، وقد أمده ضرغام بأسلوب عملي عن كيفية خوض التجربة. فمن المرجح أن شاور كان يُدرك إلى حد ما الوضع الذي تعاني منه المملكة في صراعها مع نورالدين وأن مصر ستكون عما قريب ميداناً لحسم القضية، وسواء صح ذلك أم لا فإنه حدث بالفعل، ولكن ما الذي سيستفيد شاور من الاستعانة بعموري وقد سبق وفشل الأخير في القضاء على ضرغام وانتزاع مصر من يديه؟

لقد فكر شاور في الاستعانة بنورالدين لكونه أقوى من عموري، ومن ناحية أخرى كانت علاقة شاور بنورالدين طيبة، إذ سبق وأرسل شاور إلى نورالدين الخلع

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٧.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٤.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٦؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٢.

والأموال عقب توليته الوزارة في ١٣ من أغسطس ١١٦٣م/١٢ من رمضان ٥٥٨هـ^(١)، ومن جهة أخرى يُفضّل نورالدين عن عموري بأن نورالدين مسلم بحيث لن يعترض المصريون على قدوم قواته إلى مصر لطرد ضرغام، فإذا ما تحقق ذلك وعاد شاور إلى الوزارة صار بإمكانه التلاعب بنورالدين مهدداً باستدعاء عموري كورقة أخيرة... ولكن ألم يخش شاور إذا ما توجه إلى نورالدين أن يستعين ضرغام بعموري لرد نورالدين؟

تبدو الإجابة بالإيجاب؛ لأنها الطريقة الوحيدة الباقية أمام ضرغام للاحتفاظ بمنصبه ولكن ذلك يُفقد مساندة المصريين إذا ما استعدى عموري على المسلمين، بل إن وضع ضرغام نفسه كان قلفاً بسبب قتله لأمرأء الدولة شكاً منه فيهم بأنهم يرسلون شاور لمساندته عند عودته^(٢)، وهذا يوضح ضعف موقف ضرغام وهو في سُدّة الحكم، أما الوجه الأكثر إشراقاً فتأكد شاور من أن قوة نورالدين إضافة إلى مساندة عشيرته وبعض المصريين له - ليس حباً فيه وإنما رغبة في التخلص من ضرغام - قد يؤدي إلى مساعدتهم له بما يرجح كفته على ضرغام، ربما قبل أن تصله مساعدة عموري إذا ما توخى عامل السرعة، ولكنه سوف يضع نفسه وقتذاك في موقف حرج حينما تخلو الساحة أمام نورالدين.

وتوحي الخطابات التي أرسلها عموري وإيمري بطريك أنطاكية إلى الملك لويس السابع بحدوث حالة كبيرة من القلق التي انتابت بلاط بيت المقدس حول ما يدور في دمشق من ترجيح قيام نورالدين بحملة على مصر^(٣)، والواقع أن الملك عموري

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج-٣، ص ٢٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج-١، ق ١، ص ٤١٧؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج-٣، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ عمارة اليماني: النكت العصرية، ص ٧٤-٧٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج-٩، ص ٨١.

(٣) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.79-80,80-81; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.62-63; Rohricht, *Regesta*, no. 403, 404, 406, 407.

هو الذي تسبب في هذه المشكلة، ذلك أنه هو الذي أوحى بحدوثها، بل وربما كانت حملته السابقة على مصر أكبر مشجع لنورالدين على التحرك نحو مصر في ذلك الوقت، ولإيضاح ذلك فإنه ينبغي توسيع النقاش بالاقتراب من قلب الأحداث الدائرة في بيت المقدس ودمشق.

فكما رجح الباحث من قبل توجه شاور إلى نورالدين بسب إدراكه أن نورالدين أقوى من عموري، ومن جهة أخرى لم يستعن شاور بالملك عموري لشكبه في احتمال وقوع اتفاق ما بين عموري وضرغام، ولذا فقد توجه شاور إلى نورالدين. ولم يكن نورالدين منصرفاً كلية عن متابعة أحوال مصر وإنما كانت - دائماً - في مخيلته، وبخاصة في هذه الفترة بما يتضح من خلال بعض الشواهد التي تشير ضمناً إلى ذلك، منها تمسك نورالدين بأسماء بن منقذ الذي كان منذ وقت قريب أحد رجال الدولة الفاطمية، وواحداً ممن وجهوا سياستها فترة ما، علاوة على بقاء اتصالات أسماء بن منقذ مع طلائع بن رزيق الوزير الفاطمي^(١)، ومن ناحية أخرى تزامن وصول شاور إلى بلاط نورالدين مع حث بعضهم له على غزو مصر وفتحها تفاقماً لرؤيا توحى بشيء كهذا، فتلاقى ما كان يضمه نورالدين مع طلب شاور مساعدته^(٢).

بيد أن ذلك لم يكن كافياً لاندفاع نورالدين مع شاور في مغامرة خطيرة مثل تلك، وقد قررت معظم المصادر الإسلامية أن نورالدين كان متردداً، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في هذا الأمر، وأنه لم يصل إلى قرار حتى استخار الله في هذه المسألة^(٣). وكان لقلق - لا تردد - نورالدين العديد من الأسباب الوجيهة من وجهة نظر

(١) أسماء بن منقذ: الاعتبار، ص ٦-٣٣.

(٢) من الأمور الأخرى التي شجعت نورالدين على اتخاذ قرار إيجابي بشأن التدخل في مصر وصول رؤية الشيخ المصري التي تتحدث عن استيلاء شيركوه على مصر لصالح نورالدين، وإيمان نورالدين بها حينما قرر الموافقة على التدخل ثم أرسل شيركوه على رأس هذه الحملة، بالرغم من أن نورالدين لم يكن لديه رجال كثيرون في كفاءة شيركوه، ممن يحضون بالثقة التي يحظاها لدى نورالدين. راجع: أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٠١؛ المقرئ: تعاضد الحنفاء، ج٣، ص ٢٦٤-٢٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٨٤، الباهر، ص ١٢٠-١٢١.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص ٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق١، ص ٣٢٩-٣٣٦، ٣٣٢-٣٣٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ٣١٥-٣١٦؛ عمارة اليميني: النكت العصرية، ص ٧٨-٧٩؛ ابن الأثير:

الباحث؛ إذ يبدو أن نور الدين كان يرى بلاد الشام بؤرة لصراعه مع المملكة الصليبية، ولم يكن في علمه كيف يخطط لسياسته المستقبلية في ظل تنويج ملك جديد للمملكة وهو الملك عموري، وحقا كان الأخير كونتاً ليافا وعسقلان وصد الكثير من الهجمات المصرية، بيد أن أسلوب سياسته لم يكن قد اتضح حتى قيامه بحملته الأولى على مصر، وهي أهم ما قام به الملك عموري عقب تنويجه على المستوى الخارجي، ولم يكن في ذهن نور الدين أن تكون مصر هي الوجهة الوحيدة للملك الجديد، وبخاصة أن نور الدين كان يُفضّل استيعاب فتوحاته في بلاد الشام أولاً، ويؤيد ذلك أن نور الدين لم يُحدّث شيركوه في التوجه إلى مصر إلا بعد حله لمشكلة القوى التي سوف يرسلها معه إلى مصر، بمعنى أن نور الدين لم يكن يسعى إلى التورط في مصر قبل أن يوفر لذلك جنوداً يزيدون عن احتياجه في بلاد الشام^(١)، ولما كانت حملة عموري الأولى على مصر استهلالاً مبكراً على اتجاه سياسته فإن نور الدين كان مستعداً مبدئياً لمواجهة تلك السياسة.

ولم يكن نور الدين يحفل بأمر شاور كثيراً، وربما لم يكن يثق به، ولذا فقد أودع قيادة الجيش إلى رجاله وعلى رأسهم شيركوه، على الرغم من كره شاور لذلك^(٢)، وكان لدى نور الدين دواع كثيرة للشك في نية شاور؛ لأنه لم يتقرب إليه إلا بزمه للفاطميين ولعنه لمذهبهم وهو إحياء مشاكس لا يغيب عن عقلية فطنة مثل عقلية نور الدين^(٣)، ومن ناحية أخرى يُوحى ماضي شاور السياسي بالقلق؛ لأنه يشمل مؤامرات وانقلابات للوصول للوزارة، وربما لم يبدأ نور الدين في تقرير مساعدته إلا حينما جاءت سفارة علم الملك بن النحاس^(٤) من قبل ضرغام، الذي بعث به إلى

الكامل، ج٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٤-٢٦٦.
(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٥-٢٦٧.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩.

(٣) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٠.

(٤) لم يهتد الباحث إلى مظان ترجمة علم الملك ابن النحاس هو وابن قرجلة وابن الخياط وهم من الشخصيات التي تردد اسمها فيما بعد خلال أحداث تدخل عموري في مصر، إذ كان علم الملك

نور الدين يطلب منه القبض على شاور وألا يلتفت إلى مساعدته، عندها - ربما - اتخذ نور الدين قراره خوفاً من اتجاه ضرغام إلى عموري، ولذا فإنه أظهر لرسول ضرغام في الظاهر أنه يوافقه في الوقت الذي كان يشايع فيه شاور في الباطن وكان ذلك كسباً للوقت^(١).

كما فكر نور الدين أيضاً في خطورة الطريق إلى مصر عبر جنوب الشام، وذلك لأنه يمر بمناطق يسودها النفوذ الصليبي من ناحية وبخاصة حصن الكرك والشوبك وما مثله من خطورة على المتجه من بلاد الشام إلى مصر والحجاز والعكس، هذا إلى جانب خطورة الطريق ذاته؛ إذ ينقصه الماء وطول خط الإمدادات، علاوة على وعورته التضاريسية وبخاصة في المنطقة من أيلة على خليج العقبة إلى السويس^(٢) على خليج السويس، وهي منطقة نائية وسط سيناء، وتستغرق - بمفهوم ذلك العصر - ثلاثة أيام لمرور أي قوة بها وسيضطر معها شيركوه إلى حمل الماء مسبقاً من أيلة التي يسيطر عليها الفرنج، ناهيك عن تخوفه من التجربة ذاتها في مصر وخطورتها؛ لأنه لم يكن يثق في أية مساعدة من داخل مصر - مثلما أوضح شاور له - وعند تلك النقطة ستكون مهمة الجيش صعبة^(٣).

ومن ناحية تالثة كان توجه نور الدين إلى مصر يعني أن يُفسح لنفسه مجالاً أرحب للتوسع، بعيداً عن مزاحمة بيزنطة ومنافستها في شمال بلاد الشام، وكان

رسول ضرغام إلى نور الدين عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ ليقنع نور الدين بعدم مساعدة شاور والقبض عليه، ثم اشترك الثلاثة فيما بعد في القيام بتمرد ضد شاور ولكنه تمكن من قمعه ففروا إلى الملك عموري وكانوا من الذين شجعوه على =غزو مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ، وكان آخر ما سمع عنهم محاولة ابن قرجلة الاتصال بالحشاشيين ثم بالملك عموري لحساب عمارة اليميني في مؤامراته ضد صلاح الدين على ما سيشير الباحث في الفصل الرابع، ص ٢٠٨-٢١٤. راجع أيضاً: المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٨١، ٥٦٢.

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤١٨.
(٢) السويس بلدة صغيرة على ساحل البحر الأحمر من نواحي مصر وهي ميناء مصر إلى مكة والمدينة، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام "في برية معطشة يحمل إليه الميرة من مصر على الظهر ثم تطرح في المراكب ويتوجه بها إلى الحرمين". انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٨٦.
(٣) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤١٩؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٦٦.

نورالدين يخشى وصولها في أي لحظة مفضلاً عليها الأمراء الضعفاء^(١)، كما كان نورالدين مهتماً بالأثر تؤثر هذه الحملة على الموقف السياسي في بلاد الشام، بحيث يستطيع التدخل في مصر دون أن يؤثر ذلك على وضعه في بلاد الشام، هذا في الوقت الذي يتمكن فيه من تقديم الدعم السياسي والعسكري إلى قائده شيركوه في مصر، وأن يظل خط الاتصال بينهما مفتوحاً، ويبدو أن نورالدين فكر ملياً في مساعدة شاور بما يتضح من معرفة أن شاور توجه إلى دمشق في ١٣ من أكتوبر ١١٦٣م/١٣ من ذي القعدة ٥٥٨هـ^(٢)، وهذا يقتضي ضمناً أن نورالدين أخذ وقته في التفكير في كافة نواحي الحملة، وريثما يتم استعداداته لها بتدبيره أمر العسكر، ولكن ما يمكن قوله إن الأثر الذي تركته حملة عموري الأولى على مصر فاق أي أثر آخر في تقرير نورالدين مساعدة شاور وإعادته إلى السلطة؛ لتحديد مصر على الأقل بعدم وقوعها تحت سلطة قوى أخرى.

وعندما وافق نورالدين نهائياً على مساعدة شاور تحركت قواته وعلى رأسها شيركوه من دمشق في ٩ من أبريل ١١٦٤م/١٥ من جمادى الأولى ٥٥٩هـ، وقد حرص شيركوه على اتخاذ أقصى الشرق من ممتلكات الفرنجة، شرق الكرك والشوبك، ثم توجه إلى ميناء أيلة على خليج العقبة، ومن هناك اتجه إلى خليج السويس ومنها إلى بلبس، بينما أبدى نورالدين حرصه على تأمين سيراً هادئاً لقادة جيشه، بمهاجمة أملاك الفرنجة القريبة من دمشق، فكان قصارى جهدهم أن يقوموا بحماية أملاكهم^(٣)، ويُقر بعض المؤرخين المسلمين أن شاور كان كارها لقيادة شيركوه للحملة؛ لأنه كان يرغب أن يكون له التقدم على الحملة، أو على الأقل تكون قيادتها لآخر أقل قوة من شيركوه ليسهل له السيطرة عليه، وقد بدت أولى أمارات الارتياب التي أبدتها شاور

(١) Yaacov Lev, *Saladin in Egypt*, pp.55-56; Baldwin, *The Latin*, pp.549-550.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٤-٨٥، الباهر، ص١١٩-١٢١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٦.

لشيركوه في أثناء دخولهما مصر بأن استخلفه شاور على ألا يتركه أو ينهزم عنه^(١). ولم يكن الملك عموري بعيداً عن تلك الأحداث؛ إذ تشير الوثائق الرسمية إلى فزع المملكة من خبر الجيش الضخم الذي بعثه نورالدين إلى مصر^(٢)، ولم يكن في وسع الملك سوى أن يبعث برسله إلى ضرغام للمطالبة بمال الهدنة الذي اتفق معه عليه في العام السابق، ويحدد المقريري هذا المبلغ بثلاثة وثلاثين ألف دينار، أي أنه لم يزد عما سبق ووعده به طلائع بن رزيك الملك بلديون الثالث، وهذا يعني أيضاً أن حملة عموري السابقة لم تحقق أية نتائج مادية بخلاف إثارته للمسلمين في بلاد الشام وتوجيه أنظارهم إلى خطورة ما قام به عموري في مصر على مستقبل سياسة المنطقة إذا ما استولى عليها في حملة أخرى، ويبدو أن عموري بعث رسله إلى ضرغام في ذلك الوقت كإيماءة ذكية منه، كيما يتعاون مع ضرغام ضد نورالدين وشيركوه، بيد أنه انشغل عنهم بالتصدي لساور وشيركوه^(٣).

والواقع أن ضرغام ارتكب أكثر من خطأ في تعامله مع حملة شيركوه، وكان ذلك في صالح شيركوه وشاور؛ إذ لم يبادر قادة ضرغام بمهاجمة جيش شيركوه في أثناء خروجه من صحراء المدخل الشمالي الشرقي لمصر عند صدر^(٤) وهو في حالة رثة من جراء الرحلة الشاقة في الصحراء والمعاناة من نقص المياه، وهي فرصة

(١) المقريري: اتعاض الحنفا، ج٣، ص٢٦٥-٢٦٧، ابن شداد: النوادر، ص٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩. انظر أيضاً:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Rohricht, *Regesta*, no.405. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.314-437.

(٢) Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٣) المقريري: اتعاض الحنفا، ج٣، ص٢٦٤.

(٤) كانت صدر على أيام ياقوت الحموي قلعة مهجورة خربة بين القاهرة وأيلة، بينما يحدد أبو شامة موقعها - نقلاً عن ابن أبي طي - بأنها شديدة القرب من القاهرة. انظر هامش المقريري: اتعاض الحنفا، ج٣، ص٢٩٩.

طبية للإجهاز على ذلك الجيش، وبدلاً من ذلك تباهى قادة ضرغام بقوتهم وظلوا في بلبس ينتظرون وصول جيش نورالدين، وهنا أبدى شاور تفهمه الناضج للعقلية العسكرية المصرية، حينما وصف جنود ضرغام بأنهم من الحاكة والفلاحين، ممن يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ولا يلبثون في ساحة الحرب إذا حمي الوطيس، وبرهنت الأحداث التالية التي أدت إلى فرارهم على صدق رأيه فيهم^(١).

ومن جهة ثانية قام ضرغام بأكثر من حماقة أفقدته تأييد بعض عناصر جيشه ورعيته، كان منها قتله لمعظم الأمراء المصريين الذين ارتاب في مراسلتهم لشاور، مما أدى إلى انقلاب بعض العساكر على ضرغام، منضمين إلى صفوف شاور، ثم أقدم ضرغام على خطوة أجهزت على ما بقي له من ثقة في نفوس رعاياه وهي استيلائه على أموال الأيتام للإعداد لصد جيش شاور، وكانت ثلاثة الأثافي في سماح ضرغام لشاور الاتصال بالخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (١١٦٠-١١٧١م/٥٥٥-٥٦٧هـ) الذي نبذ دعمه لضرغام وأبدى ترحيبه بشاور، وعلى الرغم من الضعف الذي كان يعانيه مركز الخليفة منذ فترة طويلة مضت فقد فاق وضعه الرمزي في قوته سلطة الوزير ضرغام وهو في ذلك المأزق^(٢).

أما الأمر الأخطر الذي وقع فيه ضرغام فهو تأخره في مراسلة الملك عموري للاستعانة به وقد جاءت الفكرة مؤخراً، حينما حاصره كل من شيركوه وشاور في القاهرة وبدا ضرغام عاجزاً عن السيطرة على الوضع الذي خرج من يده بالفعل، وبينما يُقرّ المقريري أن عموري رفض الاستجابة لرسل ضرغام إلا بأوامر صريحة من الخليفة العاضد بطلب المساعدة^(٣) فإن وليم السوري يشير إلى سرعة استعداد الملك عموري لتلبية نداء ضرغام، بيد أن الوقت قد فات حيث حُوصِرَ ضرغام وفقد جيشه كلية، وعندها قتل في ٢٢ من مايو ١١٦٤م / ٢٨ من جمادى الآخرة ٥٥٩هـ، فلم

(١) المقريري: اتعاط الحنفا، ج-٣، ص٢٦٦-٢٦٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج-١، ق ٢، ص٤١٩-٤٢٠.

(٢) المقريري: اتعاط الحنفا، ج-٣، ص٢٦٧-٢٧٣.

(٣) المقريري: اتعاط الحنفا، ج-٣، ص٢٧٦.

يجد عموري فرصة للتدخل بسبب غلبة كفة شاور وشيركوه^(١).

وبعد أيام قلائل صعد شاور إلى دار الوزارة في القاهرة وتسلم الوزارة في ٢٦ من مايو ١١٦٤م/٣ من رجب ٥٥٩هـ، ويشير المقرئزي إلى توجه شيركوه إلى بلبس في اليوم الذي اعتلى فيه شاور الوزارة، وعقب ذلك حدث الخلاف بين شيركوه وشاور مما دفع شاور إلى استدعاء الملك عموري للتصدي لشيركوه^(٢). ويشير وليم الصوري إلى استعانة شاور بشيركوه لطرد ضرغام من مصر، وحينما تم لشاور ذلك عدل وليم الصوري عن باقي ما ذكرته المصادر الإسلامية قائلاً إن شيركوه سعى إلى الاستيلاء على مصر من شاور، وكانت أولى خطوات شيركوه لتحقيق ذلك استيلائه على بلبس وادعائه أنها من حقه^(٣).

وعلى العكس تُكرّر معظم المصادر الإسلامية التي تعرضت لهذه الحقبة التاريخية رواية تنكّر شاور لشيركوه ولوعوده لنور الدين، تلك الوعود التي تقضي بأن يكون دخل مصر مثالثة بين نور الدين وشاور والعاقد، وأن يكون شاور في مصر طائعاً لأوامر نور الدين، على أن يبقى معه شيركوه في مصر نائباً عن نور الدين، وقد ادعى شاور أنه لم يستعن بجيش نور الدين وعلى رأسه شيركوه إلا لمهمة طرد ضرغام من الوزارة وإعادة شاور إليها فإذا تم ذلك فإن بقاء جيش شيركوه في مصر لم يعد له مبرراً، ثم أرسل شاور لشيركوه خمسين ألف دينار وطالبه بالرحيل عن مصر^(٤).

ويبدو من التسلسل الطبيعي للأحداث أن شاور لم يكن ينوي الاستعانة بالملك

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٩.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٧٣-٢٧٨. وكذلك: أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢٠.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٩. وأيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp.18-20; Bertrandi De Blankafort, *magistri militiae Templi*, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp. 80-81.

(٤) ابن شداد: النوادر، ص ٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٣٣٢-٣٣٧، ٤٢٠-٤٢١، ٥٠١؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ٣١٥-٣١٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٨٥، الباهر، ص ١٢١.

عموري في البداية، وذلك لأنه ظل يقاوم الهجمات الشرسة التي قام بها شيركوه ضده في القاهرة من ٢٦ من مايو/٣ من رجب حتى اتصال شاور بالملك عموري في بداية يونيو/أواخر شعبان وأواخر يوليو/بداية رمضان^(١)، وذلك لأن أحد خطابات عموري تشير إلى تحرك الملك من المملكة نحو مصر بناء على استغاثة شاور به في الأول من يوليو ١١٦٤م^(٢)، أي التاسع من شعبان ٥٥٩هـ، وقد ذكر المقرئ وصول عموري إلى بلبيس في الأول من أغسطس ١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان ٥٥٩هـ وهذا يعني أن شاور ظل يقاوم حصار شيركوه له في القاهرة لأكثر من شهر.

على أية حال تمكن شيركوه من إحكام حصاره على شاور في القاهرة، وأحرق بها عدة شوارع كما أحدث ثغرة في عدة أجزاء من أسوار القاهرة وكاد يستولي عليها، ولاريب أن شيركوه أفاد من مرافقته لشاور في حرب ضرغام في التعرف على أسلوبه القتالي وخططه كما جاس معه شوارع القاهرة والفسطاط طويلاً وعرضاً، ولمس مواطن القوة والضعف فيهما، وربما لأجل ذلك قرر شاور الاستعانة بالملك عموري، بيد أنه كان واضحاً في مفاوضاته مع الملك عموري على عكس ما فعل ضرغام.

ويبدو أن شاور أكمل مرحلة المفاوضات التي توقفت مع ضرغام من قبل، بحيث بذل له شاور وعوداً مغرية تفصح عن تفهم شاور لبعض موازين القوى في المملكة، فمن ناحية أثار لدى الملك عموري حفيظة الخوف من امتلاك نورالدين لمصر بما لا يبق للفرنج مقام في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى أوضح شاور للملك عموري أن وجود شيركوه في مصر لم يكن إلا عن مساعدة تجاوز شيركوه حدها، وفي الوقت ذاته بذل شاور للملك ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق التي سوف يقطعها في قدومه إلى مصر، فكانت سبباً وعشرين مرحلة، أي أن يحصل عموري على سبع وعشرين ألف دينار من شاور عندما يقدم إلى مصر، إضافة إلى

(١) المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج١، ق٢، ص ٢٧٣-٢٧٦.

(٢) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiae Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61.

وعد شاور لعموري بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين في مصر، والأمر الآخر الذي ينم عن فطنة شاور أنه بذل بعض الأموال للاستتارية إذا ما شاركوا في حملة الملك لمساعدة شاور في مصر، علاوة على الأمور الأخرى الفرعية مثل المبالغ المقررة سنوياً وعلف الدواب وغيرها، وذلك في مقابل حصول شاور على دعم عموري^(١).

هذا وتشير سرعة تحرك الملك عموري إلى مصر إلى أنه لم يفكر ملياً في عواقب تدخله فيها في هذه الحملة، لأنه سبق وفكر بالفعل في عواقب نجاح شيركوه في أثناء خروج جيشه إلى مصر وخلال مفاوضات ضرغام مع الملك نفسه، بحيث كانت استغاثة شاور به القشة التي يبثث عنها الغريق حينما لا يجد سوى المياه من كل جانب، ولم يبال عموري بمحاولات نور الدين منعه من الخروج بمهاجمة أملاكه؛ لأنه رأى -على حد رؤية ابن الأثير- أن الخطر في بقائه أشد من خروجه إلى مصر لمساعدة شاور "فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسدالدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقيين إلى مصر^(٢)".

ولكن من أين حصل الملك عموري على جنود هذه الحملة؟ وكيف ترك مملكته في غيابه؟ من الواضح أن عموري استفاد إلى حد ما من جماعات الحجاج الصغيرة التي وصلت إلى المملكة منذ قليل في أخذ بعضهم معه، وإبقاء بعضهم الآخر في المملكة للدفاع عنها، ومن ناحية أخرى ترك عموري قيادة الدفاع عن المملكة في عنق

(١) انظر في ذلك: المقرئبي: اتعاط الحنفاء، ج٣، ص٢٧٦-٢٧٧؛ وليم السوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢١. وكذلك:

Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١.

كل من إيمري بطريك أنطاكية وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية^(١)، أما جماعتنا الداوية والإسبتارية فإنهم شاركوا في الحملة بأعداد قليلة لم تحدد المصادرات المعاصرة، خصوصاً أن فرسان الإسبتارية والداوية كانوا ممن قاموا بدور كبير في معركة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ التي حدثت في الوقت الذي كان يحاصر فيه عموري شيركوه في بلبس، ولذا فإنهم شاركوا في الحملة على مصر ولكن على نطاق ضيق^(٢).

ويشير ابن أيبك الدوداري إلى أن عموري اصطحب معه جيش كبير إلى مصر^(٣)، وأكد جيوفري مقدم الداوية في أنطاكية - في خطابه إلى لويس السابع - أن الملك اصطحب معه أعداداً كثيرة من الأراضي المقدسة^(٤) ومن ناحية أخرى - وبشكل غير مباشر - يشير وليم الصوري إلى خلو المملكة من معظم قوتها في الوقت الذي توجه فيه نور الدين للاستيلاء على بانياس بعد معركة حارم، وعلل وليم الصوري هذا الوضع بأخذ الملك لمعظم القوة الحربية للمملكة معه إلى مصر^(٥).

وأما عدة جيش شيركوه فإنه لم يخرج من بلاد الشام في جيش كبير، لأن نور الدين لم يبعث معه إلا ما يزيد عن حاجته هو في بلاد الشام، علاوة على وصف شيركوه لما معه من قوة بأنها شرذمة قليلة، ربما لا يمكنها التغلب على ستة آلاف

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٨-٣١؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١. وانظر أيضاً:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Rohricht, *Regesta*, no.404, 406, 407.

(٢) عن مشاركة الإسبتارية في معركة حارم انظر:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٣) ابن أيبك: الدر المطلوب، ج٧، ص٢٧. وانظر أيضاً: المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٧.

(٤) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61.

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٤-٣٦.

فارس مصري في بلبليس^(١)، بما يشير إلى عدم تعدي قوة شيركوه لذلك العدد، بينما تشير خطابات عموري وإيمري إلى لويس السابع إلى قوات شيركوه بأنها كانت آلفاً مؤلفة، على حين بالغت إحدى الوثائق في تقدير عدد جنود شيركوه الذين حُوصروا معه في بلبليس بحوالي ثلاثين ألفاً^(٢)، بيد أنه تقدير مبالغ فيه للغاية لأن قوة نورالدين ذاتها في بلاد الشام كانت تُقدّر ما بين عشرة وخمسة عشر ألفاً عندما استولى نورالدين على دمشق عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ، ولم يكن أليبعث بها كاملة مع شيركوه، وبخاصة أنه كان ينظر إلى هذه الحملة على أنها مجرد عملية استطلاع لأحوال مصر وإعادة شاور إلى منصبه.

وبالرغم من انضمام بعض القبائل العربية الكنانية إلى شيركوه وبعض عسكر مصر عقب إعلان شاور عن معاداته لشيركوه فإن جيشه لم يكن ليصل إلى ثلاثين ألفاً، ولما أجبر شيركوه نفسه على الاحتماء بمدينة صغيرة مثل بلبليس ولهاجم شاور وعموري في الحال دون اللجوء لذلك التصرف الدفاعي، ومن جانب آخر فإن عدد جيش عموري لم يكن كبيراً هو الآخر، استناداً إلى تجدد وضع الحرب بين شيركوه وبين شاور وعموري حول بلبليس، بالرغم من الأخطار التي سمع بها عموري عما يواجهه الفرنجة في بلاد الشام، ومن ثم فقد كان لدى عموري من الدواعي المقنعة لإنهاء هذا الوضع الجامد بأي شكل ولو بمعركة فاصلة بيد أنه لم يفعل ذلك، وذلك على افتراض عدم ثقته بما معه من قوة.

أيّاً ما كان الأمر فإن تطور الأحداث يُشير إلى توجه شيركوه إلى بلبليس عقب علمه بوصول عموري إلى مصر لمساعدة شاور ضده، وكان وصول عموري إلى مشارف بلبليس يوم السبت الأول من أغسطس ١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان ٥٥٩هـ، وعلى الرغم من إشارة بعض وثائق المملكة إلى تحرك عموري من المملكة في أول أغسطس/١ رمضان ولم يصل إلى مصر إلا في أواخر أغسطس^(٣)

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٥، ٢٦٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤١٨-٤١٩.

² - Rohricht, *Regesta*, no.407.

(٣) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF,

أي بدايات شوال فإنه تحديد يفتقر إلى الدقة؛ لأن الملك كان متسرعاً في تحركه إلى مصر خوفاً من وقوعها في يد شيركوه، والمعتاد أن يستغرق الطريق إلى بلبيس من عشرة إلى خمسة عشر يوماً تقريباً وربما أقل من ذلك^(١)، مما يعني أن الملك إذا كان قد تحرك من المملكة في أول أغسطس/ ١١ من رمضان فهذا يستدعي أن تكون أحداث معركة حارم قد سبقت وصول عموري إلى مصر، بينما تشير المصادر إلى وصول أخبار هزيمة الفرنج في حارم للملك عموري أثناء حصاره بلبيس بالفعل وليس قبل ذلك، وقد حدثت موقعة حارم في ١٢ من أغسطس ١١٦٤م/ ٢٢ من رمضان ٥٥٩هـ، أي بعد وصول الملك إلى مصر بحوالي أحد عشر يوماً تقريباً.

وقد دل اتخاذ شيركوه لمدينة بلبيس بوصفها قاعدة مبكرة له وجمعه بها الإمدادات والمؤن وإعمال ما يلزم لحالة تقهقره إليها على بعد نظره وسعة أفقه، وقد حدث ذلك عقب تنكّر شاور له في وعوده وقبل استدعائه للملك عموري بحوالي شهر تقريباً، ولم تكن هذه المدة كافية لجمع الكثير من الإمدادات التي تولى صلاح الدين أمرها، ومن ناحية أخرى فإنها لم تكن مدة كافية أيضاً لتحصين مدينة ضعيفة مثل بلبيس، عليها سور قصير من لبن وبها حصن من لبن، بناه الصالح طلائع بن رزيك^(٢)، ولذا فإن المدينة لم تكن لتتحمل عملية حصار طويلة الأمد مثل هذه؛ حيث دار الحصار عليها وبها شيركوه وجنده حوالي ثلاثة أشهر، على تقدير أغلب مصادر تلك الفترة، بدءاً من وصول عموري إليها وحتى حدوث الصلح وخروج شاور منها في ١٩ من أكتوبر ١١٦٤م/ غرة ذي الحجة ٥٥٩هـ^(٣)، ولكن لم يبذ أن عموري قام

t. XVI, pp.60-61.

(١) ويفهم هذا من معرفة أن صلح أسد الدين على بلبيس كان في غرة ذي الحجة ووصل دمشق في ١٣ من ذي الحجة من السنة نفسها، هذا بالرغم من خطورة الطريق إلى دمشق، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبيت المقدس. انظر: المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٧٨.

(٢) انظر في ذلك: المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٣٦-٢٧٧؛ ابن أبيك: الدر المطلوب، ج٧، ص ٢٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٨٥، الباهر، ص ١٢١-١٢٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٨٥، الباهر، ص ١٢٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٤٢٢-٤٢٣؛ ابن أبيك: الدر المطلوب، ج٧، ص ٢٧؛ البنداري: سنا البرق، ص ١٩؛

بعملية حصار شاملة للمدينة على الرغم من ضعفها وسهولة الاستيلاء عليها، علاوة على حرص شيركوه على عدم الزج بقواته في مغامرة يعرف مقدماً أنه سوف يخسرها، وعليه فقد تجمد الوضع الحربي بين الطرفين.

ويُقدّم أبو شامة رواية أشار فيها إلى أسباب الصلح الذي تم في بلبليس بين عموري وشيركوه، بأنه نجم عن إرسال نورالدين برؤوس قتلى الفرنج في بانياس وأعلامهم إلى شيركوه في بلبليس؛ ليرفعها على أسوار المدينة التي يحاصرها الفرنج وبذلك تهن عزيبتهم ويفت في عضدهم، وبناء عليه قلق عموري ورجاله على الفرنج في بلاد الشام، ولذا فإنه قرر عقد الصلح ورفع الحصار^(١). وعلى الرغم من المنطقية التي تفوح من تلك الرواية فإنها رواية ضعيفة تحمل في داخلها تناقضات تجعل الباحث لا يأخذ ببعض ما جاء فيها. إذ تفترض الرواية أن عموري لم يدر بما حدث للصليبيين في بلاد الشام إلا بقدم هؤلاء الرسل، وهذا يتعارض ضمناً مع حقيقة أن عموري كان له خط اتصالات مفتوح مع المملكة بعكس حال شيركوه الذي كان محبوساً عن العالم تقريباً بسبب الحصار هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنه يصعب وصول أي رسل إلى شيركوه بأية حال عقب استيلاء نورالدين على بانياس وإغارته التالية على طبرية، وذلك لأن المصادر الصليبية تحدد يوم ١٨ من أكتوبر ١١٦٤م تاريخاً لاستيلاء نورالدين على بانياس^(٢)، وهي تقابل الأحد ٢٩ من ذي القعدة ٥٥٩هـ، وأما المفارقة فإنما انسحاب شيركوه عن بلبليس يوم ١٩ من أكتوبر/غرة ذي الحجة من العام نفسه، أي في اليوم الثاني بما لا يتيح وصول رسل من بلاد الشام إلى مصر في تلك المدة القصيرة.

ومن ناحية ثالثة تقدم بعض المصادر تفسيراً للصلح بأن عموري كان يسعى من جهته، حينما جاءت أخبار حارم، إلى إدراك بانياس قبل استيلاء نورالدين عليها، وأنه أسف بشدة على فقدان حارم الحصن الأمامي لأنطاكية، مما جعله يبادر بالمفاوضات

المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٧٧؛ ابن شداد: النوادر، ص ٢٣.

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٤٢٢-٤٢٣ (وهي رواية ابن أبي طي).

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٣٥.

التي انتهت بعقد الصلح^(١). والواقع أن عموري كان متأخراً في الاستجابة لما كان يحدث في حارم ومن بعدها بانياس؛ إذ كان وصول الملك إلى مشارف بلبيس كما أشار الباحث من قبل في الأول من أغسطس ١١٦٤م/الحادي عشر من رمضان ٥٥٩هـ، ثم دارت عمليات الحصار^(٢)، وبعدها بقليل في ١٢ من أغسطس/٢٢ من رمضان استولى نور الدين علي حارم بعد هزيمته للصليبيين.

وعلى افتراض أن الأخبار وصلت عموري بعد حدوث معركة حارم بعشرة أيام، وهي ليست بأخبار عادية، فالمفترض في ظل قلق عموري على الصليبيين - وهو يدرك تماماً أنه صاحب السلطة والقرار في أمر حصار بلبيس - أن يتحرك على الفور لإدراك بانياس قبل أن تقع في أيدي نور الدين مثلما وقعت حارم، لا أن ينتظر لأكثر من ستة وثلاثين يوماً في حصار هش لمدينة ضعيفة مثل بلبيس، لا يحيط بها سوى سور من لبن قصير وليس لها خندق في مقابل وجود بعض أبراج الحصار لدى عموري، بينما كان وضع شيركوه حرجاً بسبب مقتل الكثيرين من جنوده، واستمالة شاور لبعضهم الآخر، ورفض رجال شيركوه شن هجوم فوري في بداية الحصار، ثم فقدته للمؤنة بسبب طول عملية الحصار التي امتدت لثلاثة أشهر، ولذا فإن أياً ما كان لدى شيركوه فإنه لا ريب نافذ، وزاد وضعه الحرج عدم وصوله أية إمدادات من نور الدين ولا أية أخبار عنه، بحيث كان شيركوه محاصراً تماماً، ولم يعرف تقريباً بما حققه نور الدين في بلاد الشام^(٣).

وعند هذه النقطة يقف الباحث أمام تلك المسلمة التي أقرتها بعض المصادر التي

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ج٧، ص٢٧-٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٧-٣٤٨؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٧-٢٧٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٥-٨٦؛ الباهر، ص١٢٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٣٢١-٣٢٢.

(٢) المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٤-٢٧٩.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢١-٤٢٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢١-١٢٢؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، ج٧، ص٢٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٧-٣٤٨.

روت تلك الأحداث، وهي أن الصلح إنما تم بسبب رغبة عموري في إدراك بانياس قبل أن يستولى عليها نورالدين؛ إذ ينبغي إعادة النظر إليها على ضوء أن عموري كان أمامه الوقت الكافي للانسحاب من مصر وإنقاذ بانياس على الأقل؛ إذ كان أمامه شهر على أسوأ تقدير لإدراكها، أما الأسباب الحقيقية فإنها ترتكن إلى حقيقة أخرى تتعلق بوجود شيركوه في مصر؛ إذ لم يُرد الملك عموري الذي رأى في مصر حلمه الذي سيحمي به المملكة من الانهيار أن تقع في يد ألد أعدائه ويتركها له بهذه السهولة؛ إذ يبدو أنه عقد مقارنة في ذهنه بين مصر، إذا ما سقطت في يد شيركوه، أي خسارة عموري لها، وبين خسارته لحارم التي لم تكن من أملاكه، وبين بانياس التي توجه إليها نورالدين ولم يكن عموري يعلم مصيرها بعد؛ إذن كان موقفه يرتكن إلى ضرورة خروج شيركوه من مصر - إن لم يقض عليه - وهنا تظهر الحقيقة الثانية، وهي الهدف من هذا التساؤل؛ إذا كان موقف عموري تجاه إدراك بانياس يتوقف على ضرورة خروج شيركوه من مصر فلماذا لم يقم بمهاجمته وهو يعلم أن المدينة ضعيفة وأنها قد لا تصمد لهجوم عنيف تقوم به قواته وقوات شاور؟

تكمّن الإجابة في جعاب شاور الدبلوماسية - الذي لم يكن عموري يُقدّره حق قدره - آنذاك ولعدة سنوات تالية - لأنه كان في ورطة كبرى بوجود هاتين القوتين في مصر، وسواء كان عموري حليفاً له أم جاء طامعاً في مصر، فإنه في كل الأحوال سيسعى للاستيلاء على مصر في اللحظة المناسبة، وكانت حملته السابقة برهاناً جلياً على ما في نفسه، ومن ناحية أخرى لن يتورع شيركوه إذا ما نجح في مصر عن رد الصاع لشاور، ولذا فقد كان على شاور أن يتلاعب بعموري مثلما سبق وصعد إلى الوزارة على أكتاف شيركوه؛ فأخذ يرسل إلى رجال عموري خلال عمليات الحصار، يُخدّرهم بالأموال حتى لا يُحرّكوا في الملك تصعيد الهجوم على بلبيس، بحيث لا ينفرد عموري بأي انتصار، ومن جهة ثانية سعى شاور إلى اكتساب بعض رجال شيركوه بما يُضعف من موقفه ودون أن يقضي عليه، وطالما استمر الموقف فإن شاور يضمن عدم انفراد أي من عموري أو شيركوه بالموقف في مصر، حتى تصل الأحداث إلى ما وصلت إليه من وصول كل من عموري وشيركوه إلى وضع لا يتمكنان معه من

الاستمرار في الفعل ورد الفعل^(١).

والحق أن المصادر المتاحة لا تعطي إجابة واضحة عن استهل مفاوضات الصلح، وبخاصة أن المصادر الإسلامية وافقت المصادر الصليبية في التردد والاختلاف حول من بادر بطلب الصلح أولاً^(٢)، ولاريب أن كلا من عموري وشيركوه كانا في حاجة إلى الصلح، فالملك عموري يتحرق شوقاً لإنهاء هذا الوضع الجامد للعودة إلى بلاد الشام، بسبب الأحداث الأخيرة التي مرت بها المملكة، إضافة إلى أن ظروف الطقس في هذا الوقت من العام كانت شديدة الحرارة، بما لا يحتملها عموري وجيشه الذي مل القتال، ولم يُقدّم شاور للملك عموري من المساعدة الإيجابية ما يكفي لحسم الحصار، بل كان يسر شاور أن ينتهي الحصار دون حسم الموقف في معركة لأحدهما^(٣)، وأما شيركوه فإنه كان يفتقر الإمدادات، علاوة على قتل بعض جنوده وحلفائه من الكنانين، وسوء وضع الدفاع في المدينة وانقطاع أخباره عن سيده نورالدين، وازدياد إحساس شيركوه بالغربة في بلد غريبة عنه، معظم ما فيها من أرض ورعايا وحكام أعداء له^(٤)، ولذا فإنه هو الآخر كان في عوز إلى الرحيل عن مصر ولكن دون أن يُمكن عموري منها. ويتضح من شروط الصلح أنها تلبي احتياجات كل منهما في أن يخرجوا من مصر بغض النظر عن بادر بطلب الصلح،

(١) انظر: أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٨٥، الباهر، ص١٢٢-١٢٣؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص٢٧٧-٢٧٨، أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢١-٤٢٣؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٣-٢٤. انظر أيضاً:

Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨.

لأنها بحق مسألة شائكة يصعب تقريرها.

عند هذه النقطة انتهت حملة عموري ولكن ماذا حقق الملك في مصر؟ هذا يستدعي تذكر هدف الحملة، وهو منع شيركوه من الاستيلاء على مصر، ومحاولة إيجاد فرصة تمكن عموري منها، وبرغم كل الظروف فإن عموري نجح في تحقيق هذا الهدف بالفعل، لأنه لم يتحرك إلى مصر بروح المبادرة النابعة من داخله، وإنما بناء على طلب خارجي، بيد أنه لم يتمكن من تحقيق الهدف الثاني نهائياً، ولكنه أثبت لشاور حسن نيته تجاهه، وأصبح للملك عموري مغرس قدم لدى شاور وفي مصر، وهي بادرة للعلاقات التي جمعت بين عموري وشاور فيما بعد، لمنع امتداد نفوذ نورالدين إلى مصر.

ولا تقدم المصادر المعاصرة أية إدانة للملك عموري تجاه ما حدث في بانياس^(١)، والواضح أن معركة حارم كانت صورة قريبة إلى حد ما مما حدث في معركة أنب - منذ عقد تقريباً - التي قُتل على إثرها ريمون بواتيه أمير أنطاكية ودمر نورالدين جيش أنطاكية وواصل هجماته على المدينة حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط، وبالرغم من ذلك لم يقم نورالدين بمهاجمة أنطاكية، ولم يستطع بلدوين الثالث أن يُغير من وقع هزيمة معركة أنب أو أن يردع نورالدين مع أنه لم يكن منشغلاً في حملة مثل عموري، وهذا في حد ذاته يبرر للملك عموري قيامه بحملته على مصر؛ لأنه إذا كان يتبارى هو ونورالدين في بلاد الشام فإنه يتعين عليه أن يباري نورالدين في الأماكن الأخرى التي تشكل خطراً في المستقبل على أمن المملكة وفي صراعه معه على بلاد الشام.

لقد قر في عقلية الصليبيين المعاصرين أن مصر مهمة بالنسبة لأمن المملكة وكان عموري ينظر إليها وهو ينظر إلى مستقبل مملكة بيت المقدس، الاثنتين في صورة واحدة، وكان الشعور العام آنذاك معبراً بفرعه ورعبه عن خطورة استيلاء

(١) عن مسئولية عموري عما حدث في بانياس قارن ما ورد لدى:

Baldwin, *The Latin*, pp.550-551; Gibb, *Nur ad-Din*, p.524; Richard, *Le Royaume Latin*, p.52.

نور الدين على مصر عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، ولم يُوجّه أحد ممن كتب إلى لويس السابع أو ممن أرخ لسياسة عموري في هذه المرحلة أي نقد له حيال ما حدث في حارم؛ ربما لأن حارم كانت من أملاك الأمير بوهيمند الثالث وليس الملك عموري، وكان بوهيمند الثالث المسئول عن رعاية المملكة في غياب الملك^(١).

أما عن المكاسب المادية فقد أفاد الملك كثيراً من هذه الحملة، خصوصاً أن خسائره المادية والبشرية كانت قليلة؛ لأن الاشتباكات ذاتها كانت قليلة، وقد حصل الملك على تأكيد من شاور بمبلغ سنوي ثابت، علاوة على حصول عموري على ألف دينار عن كل يوم قضاة في مصر^(٢)، وقد قاربت مدة بقائه على ثلاثة أشهر بما يُوحى أنه ربما حصل على ما يقارب تسعين ألف دينار، هذا فضلاً عن ما بذله له شاور من مبلغ مقدر بسبعة وعشرين ألف دينار مقدماً للملك^(٣)، ولا يجب أن يُنسى أن عموري لن يكون قلقاً على مئونة جيشه من الطعام والشراب - وربما السلاح فيما بعد - طالما يحارب دفاعاً عن مصر لا غازياً لها.

ولا ينبغي المبالغة في تقدير النفوذ السياسي والعسكري الذي حققه الملك عموري في مصر في هذه الحملة، لأنه يكاد يكون معدوماً، فبقدر استدعاء شاور للملك فإنه لم يكن يثق به ولا بمساعدته، بحيث خشي شاور إن انتصر عموري على شيركوه أن يقوم عموري بالاستيلاء على بلبيس كحق أخذه بساعده، وقد تأكدت بعض شكوك شاور في الملك في مراسلاته التالية لنور الدين، طالباً منه صرف شيركوه عن الاهتمام بمصر والتفكير بها، وفي استنكار شاور الشديد لقدم عموري في الحملة الثالثة، ولم يسمح شاور بتقدم عموري إلى مصر إلا حينما أيقن أن عموري قدم

(١) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.80-81; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61.

(٢) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج-٣، ص٢٧٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج-١، ق٢، ص٣٣٥، ٤٢١.

لإعانتة ضد شيركوه عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ^(١) على ما سيشير الباحث بعد قليل.

وقضى الملك عموري عامي ١١٦٥-١١٦٦م/٥٦٠-٥٦١هـ في التصدي لهجمات نورالدين على الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان، بينما كان شيركوه يُغير على إقليم ما وراء نهر الأردن^(٢)، ولكن سرعان ما أدت الظروف إلى تدخل كل من عموري ونورالدين في مصر مرة أخرى، ولم يكن عموري هو البادئ في التحرك إليها وإنما كان شيركوه الذي قاد جيش نورالدين إلى مصر مما اضطر عموري إلى التدخل لمنعه من الاستيلاء عليها، ومن ناحية أخرى لم يرسل الملك عموري، هو أو غيره أية رسالة استغاثة إلى الغرب الأوروبي خلال أحداث هذه الحملة، ومن ناحية أخرى لم تهدأ الأحداث التي أثارها نورالدين في بلاد الشام عقب معركة حارم، كما لم يصل الملك عموري رداً من بيزنطة عن العروس التي بعث في طلب يدها خلال وجوده في أنطاكية عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، بل ظلت سفارة عموري في بيزنطة لمدة عامين تاليين دون أن تتلقى أي رد، ومن ثم فإن هذه الأوضاع لم تكن مما يبشر بحدوث جديد في وضع المملكة يقود إلى قيام عموري بهذه الحملة، بل إن دور الإمدادات الغربية تجاه المملكة كان باهتاً خلال هذه الفترة، بحيث لم تُشر المصادر إلى قدوم أي منها، مما يستدعي التعرض لأسباب قيام عموري بهذه الحملة التي تُلَقَّب بالحملة الثالثة على مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ.

كان الطمع الأعمى هو الهدف المسيطر على دوافع هذه الحملة، وقد أشار وليم الصوري إلى رؤية شاور لهذا الطمع، بما بدا من ذعره واضطرابه حينما علم بقدوم

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٤١.

(٢) استولى شيركوه على قلعة شقيف تيرون، أما القلعة التي دمرها للدواية فيرجح رنسمان أنها ربما تكون مغارة الكهف الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عمان. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٤، الباهر، ص ١٣١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٣٦٠؛ ابن العديم: زبدة الطلب، ج٢، ص ٣٢٢.

ويشير رنسمان في وصفه للقلعة التي دمرها شيركوه إلى أنها ربما حوت خرائب رومانية وإن لم يكن بها ما يدل على عمائر تعود إلى العصور الوسطى. انظر: رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٠٠.

عموري على رأس جيشه إلى مصر، وهذا يفترض ضمناً أن شاور لم يكن يعلم شيئاً عن تقدم شيركوه إلى مصر، ذلك أن وليم الصوري يوضح أن عموري رد على رسل شاور بأنه قادم لمساعدته إزاء تحرك شيركوه نحو مصر قبل عموري بقليل، ولم يطمئن بال شاور إلا بتأكده من صدق عموري بالفعل^(١)، بيد أن الرواية على هذه الصورة تحمل شيئاً من المبالغة؛ لأنه يصعب أن يغفل شاور عن اختراق جيش كامل إلى أرضه دون أن يعلم بذلك وإلا لما علم بقدم عموري ذاته، حيث اتضح من خلال الأحداث السابقة أن أخبار القطاع الشمالي الشرقي لمصر كانت تصل إلى القاهرة مباشرة عن طريق بلبيس، وهذا يعني أن وليم الصوري حاول أن يُبرّر زحف عموري نحو مصر طالما أن شاور لم يستدع الملك، ومن جهة أخرى لم يمانع شاور من قدوم عموري، وذلك امتداداً لما كان يخشاه شاور مما يضمنه له شيركوه من جراء تصرف شاور تجاهه في الحملة السابقة^(٢).

وتشير بعض المصادر - في أسباب مهاجمة شيركوه لمصر في هذه الحملة - إلى خوف نورالدين وشيركوه من حدوث بعض الاتصالات السرية بين عموري وشاور؛ خوفاً من امتلاك الفرنج لمصر، ويُشير آخرون إلى الرغبة الشديدة لدى شيركوه للانتقام لنفسه ولجيشه مما قام به شاور ضده في الحملة السابقة^(٣)، وبالغت آراء محدثة في وصف دوافع شيركوه بأنه كان يرغب في الاستيلاء على مصر ليريح

(١) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٣٩-٤٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢٤. ويشير أبو شامة عن ابن أبي طي إلى أن عموري وصل أسرع من شيركوه؛ لأنه أبحر مسرعاً بينما كان شيركوه يسير براً، ولذا فقد وصل الملك إلى مصر قبله، وقد أقر ابن أبي طي أن عموري أرسل إلى شاور يخبره بأمر شيركوه، فطلب منه شاور "إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي"، ولعل شيركوه عدل عن بلبيس لعلمه باجتماع عموري وشاور بها، لذا عرج على الجنوب إلى أطفح بعيداً عنها وأغار على تلك المناطق. راجع: أبو شامة: الروضتين، ج٤، ص ٤٢٤.

(٣) انظر في ذلك: ابن شداد: النوادر، ص ٢٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٧، ص ١٤٧-١٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٤٨؛ المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٨٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٣٦٣-٣٦٤، ٣٦٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٣٩-٤٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٤-٩٥، الباهر، ص ١٣٢،

نفسه من التحركات الكثيرة التي كان يرافق فيها نور الدين، وأنه رغب في اتخاذ مصر ملكاً له، يكون نائباً فيها عن نور الدين، وأنه بعث في شأن ذلك إلى الخلافة العباسية يطمعها في ثراء مصر، وفي القضاء على المذهب الشيعي بها، حتى يضع نور الدين أمام الأمر الواقع، بحيث لا يستطيع التراجع، وكان مما يُخيف نور الدين عدم اطمئنانه على سير جيشه إلى مصر؛ خوفاً عليه من الصليبيين ومن دهاء شاور، كما كان مما يقلقه أكثر أن يحدث تحالف بين الصليبيين والبيزنطيين^(١).

والواقع أن ما حدث لم يخرج عما سبق، بيد أن الاستيلاء على مصر التي كانت فيما سبق مجرد فكرة مثالية، صارت اليوم واقعية بما ترتب على الحملة السابقة من التعرف على مصر من داخلها ورؤية خيراتها والوقوف على حالة الدفاع عنها، وغيرها مما يكشف بعض مواطن الضعف الذي تعاني منه، ولم يكن ذلك غائباً عن كلا المعسكرين العموري والنوري، وإذا كان الصليبيون لا يزالون يعانون من جراء هزائم حارم وبانياس والخروج خالين الوفاض من مصر منذ ثلاثة أعوام فإن هذه الأحوال السيئة ذاتها هي التي تقترض ألا يفرض عموري في ضياع مصر منه، سواء بالطمع في امتلاكها أو بالحرص على عدم استيلاء غيره عليها، لقد استنفذت موارد بلاد الشام في الاقتصاد والقوى البشرية، بينما تظل مصر - برغم ما تعانيه من ضعف في كافة النواحي - دولة غنية بمواردها، وإذا كانت مكانة نور الدين قد ارتفعت بعد هزيمته للصليبيين في حارم فإن عموري ما زال يأمل في عقد تحالف مع الإمبراطور مانويل يُمكنه من التحرك صوب مصر وهو مطمئن إلى مؤخرته في شمال بلاد الشام^(٢).

وبناء على هذا الوضع قرر المجلس الذي عقده عموري في نابلس التوجه إلى

(١) راجع: علية عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢١-١٢٢؛ حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٠٩؛ ستانلي لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ط ١، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٩٢-٩٣. وأيضاً:

Schlumberger, *Campaignes*, p.104, note.2-4.

(٢) Lilie, *Byzantium*, pp.310-315.

مصر؛ للتصدي لجيش شيركوه قبل استيلائه عليها، وكان مما اتبعه الملك لتمويل حملته فرضه ضريبة العشر على الأملاك العينية على كل فرد في المملكة، وأمر بحشد طاقة المملكة العسكرية وبالتجمع في عسقلان، وقد حاول الملك - في عجلة - عرقلة شيركوه قبل دخوله مصر بيد أنه فشل، ولذا فقد عجل عموري بإتمام استعداد الاحتشاد بحيث وصل إلى مصر في الوقت الذي وصل فيه شيركوه إليها، ويعود سبب تأخر شيركوه في الوصول إلى مصر إلى اتخاذ مساراً إلى أقصى الشرق من أملاك الفرنجة، وأنه لكي يتفادى معارضة عموري له اضطر إلى الدخول في عمق الصحراء إلى الشرق، وقد ترتب على ذلك تعرضه لعاصفة رملية شديدة، كانت سبباً في بقاء حركته وقضت على جماله وجانب كبير من مؤنثته ورجاله^(١).

ويُشير وليم الصوري - المؤرخ الذي انفرد بإيراد تفاصيل أكبر لهذه الحملة بما في ذلك معركة البابين وحصار الإسكندرية - إلى انهاش شاور من وصول الملك عموري على هذه الصورة دون استدعاء، ولم يصدق شاور السبب الذي ذكره عموري لمجيئه إلى مصر إلا بإرساله بمن يتأكد له من وجود شيركوه في مصر، هذا على الرغم من إقرار المقريري لاستعداد شاور للتصدي لشيركوه على خلاف ما قال وليم الصوري، بمعنى أنه كان يعلم بتحرك شيركوه إلى مصر، وذلك ما جعل الأخير يسلك الطريق إلى أطيح وليس إلى القاهرة^(٢)، ومن جهة أخرى يؤكد وليم الصوري مراراً وتكراراً سواء عن عمد أو عن غير عمد، على أن ثمة ما كان يمنع من تبادل الثقة بين شاور وعموري، وقد سلك عموري مؤخراً سلوكاً ينم عن هذا في محاولته تأكيد الاتفاق الجديد بمقابلة رسله للخليفة والحصول على إقراره الشخصي عليه.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٩-٤٠؛ المقريري: الخطط، ج٢، ص٤٧؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٨٧-٣٨٨؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٧٩، ج٧، ص١٤٧-١٤٨؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ المقريري: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٤؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨.

(٢) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٩-٤٠؛ المقريري: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٢-٢٨٣.

ولكن يتضح من رواية وليم الصوري أن شاور هو الذي أشار إلى فكرة تأكيد الاتفاق الجديد للملك عموري مع الخليفة العاضد^(١)، وهي إشارة تستدعي التوقف عندها قليلاً، ذلك أن العاضد لم يكن له ناقة ولا حمل بعير فيما يحدث من حوله، وهو ما سجله وليم الصوري الذي كان غريباً عن البلاد، بيد أنه أدرك أن الخليفة العاضد عاجز عن اتخاذ أي إجراء دون الرجوع إلى شاور، وأما سر إقحام شاور في هذا الاتفاق، فإن الباحث يُرجح أن شاور حاول أن يُحمّل العاضد - خليفة مصر وصاحب السلطة الشرعية بها - مسئولية عقد مثل هذا الاتفاق أمام رعاياه وبحيث لا يكون هو وحده أمام المدفع إذا دعت الضرورة.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الخطوة تُورط الصليبيين في مصر بازدياد طمعهم فيها، وذلك لأن دخول الرسل الفرنج إلى القصر الخلافي كان متعمداً تقريباً، وكان وصف وليم الصوري له أشبه بما يصاغ ويحكى في حكايات ألف ليلة وليلة، وهو وإن كان وصفاً مبالغاً فيه، بيد أن ثراء مصر كان واضحاً لغيره ممن أرخ لهذه الفترة من مؤرخي الفرنج مثل إرنول، الذي وصف بدوره الثراء الفاطمي، ومن ثم فإن جولة سفراء عموري في أروقة القصر الفاطمي لن تزيد الملك عموري إلا طمعاً فيما بها، مما تعمد شاور إظهاره لرسل عموري، وقد أنت خطته الخبيثة أكلها^(٢).

كان الاتفاق ينص على حصول الملك على أربعمئة ألف دينار، يدفع شاور نصفها مقدماً ويدفع النصف الآخر على أوقات محددة، وذلك في مقابل تعهد عموري "بخط يده ويصدق من غير غش ولا سوء نية على أنه لن يغادر أرض مصر حتى يتم

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٩-٥٠.

(٢) Richard of Holy Trinity, *Itinerary of Richard I*, (Cambridge, 2000), pp.7-8; Ernoul, *Chronique*, pp.15-20. See also: Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, pp.75-77.

وعن وصف وليم الصوري للبلاد الفاطمي انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٦-٤٨. وكذلك: فايز نجيب اسكندر: "الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب- جامعة المنيا، العدد٤٨، أبريل ٢٠٠٣، ص٨٨-٩٩. وأيضاً: Schlumberger, *Campaignes*, pp.116-124.

القضاء على شيركوه بجميع عسكره أو يخرجوا من البلاد عن بكرة أبيهم^(١)، وبإبرام الاتفاق على هذا النحو تحرك الطرفان لمواجهة شيركوه، الذي استطاع في ذلك الوقت عبور نهر النيل إلى الجيزة^(٢)، وبقي فيها في مقابل القاهرة، وفي الحال تحرك عموري وشاور في محاولات عسكرية وتتبعية خلفه للقضاء عليه على طول الصعيد، وكانت طبيعة أرض مصر في الوادي في مصر الوسطى مما سهل من مهمة التتبع، وكان شيركوه متعمداً سحب عموري وشاور إلى صعيد مصر لإبعادهما عن مراكز إمدادهما في القاهرة وبيت المقدس، وحينها نجح كل من عموري وشاور في تضيق الخناق على شيركوه في منطقة تعرف بالبابين هي التي حدثت بها المعركة المشهورة التي تحمل الاسم نفسه^(٣).

والواقع أن مطاردة عموري وشاور لشيركوه في صعيد مصر لم تكن بالأمر الهين؛ إذ تخلل عملية المطاردة العديد من الأحداث المعقدة، ثم كانت معركة البابين هي الأخرى التي ألفت المصادر المختلفة في عرضها مزيداً من التداخلات والتناقضات الأمر الذي لا يبسر من محاولة معالجتها، من حيث عدد الجيشين وموقع المعركة وتفاصيل تخص أحداثها وخطتها وتاريخها ونتائجها. فعن عدد الجيشين الذين التقيا في المعركة فقد أوقعنا وليم الصوري في مأزق شديد وذلك حينما قدر عدد الجيش الصليبي بثلاثمائة وأربعة وسبعين فارساً وعدد من التركبولية^(٤) والمصريين

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٤٦.

(٢) الجيزة الناحية والجانب وجمعها جيز، والجيز جانب الوادي وقد يقال فيه الجيزة، والجيزة اسم لقرية جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة القسطنطينية. راجع: المقرئ: الخط، ج١، ص٥٧٥.

(٣) عن تفاصيل العمليات العسكرية التي أعقبت دخول شيركوه الجيزة وحتى أحداث معركة البابين انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٥٤-٦١؛ فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص٩٠-١٠٧. وأيضاً:

Schlumberger, *Campaigns*, pp.125-148; Rohricht, *Amalrich I*, pp.446-448.

(٤) يمثل التركبولية طبقة الأجناد السرجندية وفيرة العدد، وهم في الأصل رجاله كاملة العدة ولهم أصل إفرنجي، وينزلون بإقطاعات سادتهم، وقد تزوجوا من المسيحيات الوطنيات، ثم أخذوا - منذ عام ١١٥٠ - يؤلفون طبقة البولانية Poulains التي أخذت تندمج في المجتمع المسيحي، وجرى

وهم في نظره كانوا عبئاً ثقيلاً على جيش عموري، وقد وافقه في ذلك جاك دي فيتري حينما أقر أن جيش عموري كان حوالي ثلاثمائة وسبعين فارساً.

وعلى الجانب الآخر قدّر وليم الصوري جيش شيركوه ما بين عشرين وواحدًا وعشرين ألفاً؛ اثنا عشر ألف من الشوام، منهم تسعة آلاف ممن يلبسون الدروع على صدورهم والمغافر على رؤوسهم وخيولهم مدرعة أيضاً، واقتصر تسليح الثلاثة آلاف الأخرى على الأقواس والسهام، وغير هؤلاء عشرة أو إحدى عشر ألف من البدو، ممن يحاربون بالرمح^(١)، فإذا انتقل الباحث إلى جيش شيركوه من خلال المصادر الإسلامية اتضح ما لدى وليم الصوري من مبالغة كبيرة؛ ذلك أن معظم المصادر الإسلامية قدّرت جيش شيركوه بألفي فارس من الخيالة السريعة الوافرة، أما تقديرها لجيش عموري وشاور فيُشير بعضها إلى أنه كان أكثر من عشرة آلاف ممن اشترك في معركة البابين، ناهيك عن ترك من حامية لحراسة القاهرة، بينما قدرتها مصادر أخرى بعشرات الألوف ممن شاركوا في معركة البابين، ويشير غيرها إلى أن عموري تحرك هو وشاور بجميع جيوشهما لمواجهة شيركوه في البابين^(٢).

وبنظرة دقيقة إلى الأحداث التي سبقت المعركة والأحداث التي تلتها فسوف يتضح أن المبالغة كانت واضحة في وصف كلا الجيشين، بحيث أل كل فريق من المصادر على نفسه أن يظهر بمظهر الضعف أمام خصمه الذي وصفه بالقوة، بحيث يبرر لنفسه صعوبة موقفه، وقد أخذ وليم الصوري النصيب الأكبر من المبالغات،

تجنيدهم محلياً وتشبهوا بالخيالة البيزنطية الخفيفة في السلاح والتدريب، ويشير اسم التركبولية إلى نسبتهم إلى المسيحيين المحليين ممن تحول منهم عن ديانتهم، وقد تشير إلى من تحل منهم عن قيود طبقتهم، ويرجح أنهم يتحدثون لغة أمهاتهم. راجع: رنسمان: تاريخ الحروب، جـ ٢، ص ٤٦٩.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ ٤، ص ٦٢؛ انظر أيضاً: جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص ١٤٦.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٩٥، الباهر، ص ١٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٣٤٩؛ ابن طاهر: أخبار الدول، ص ١١٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٢٢؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٩؛ البنداري: سنا البرق، ص ٢٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ ١، ق ٢، ص ٣٦٥، ٣٧٠، ٤٢٥.

وذلك عن عمد لإظهار الملك عموري هو وباروناته وفرسانه أفضل من حارب في المعركة، وبحيث لم يكن للفاطميين أو التركبولية أي دور فيها، بل ربما كان هؤلاء - من وجهة نظر وليم الصوري - عبئاً على عموري أكثر مما له، بل إن وصف وليم لأحداث تحركات شيركوه ومطاردة عموري وشاور له في الصعيد تدل على تناقص جيشه على نحو ملحوظ، حيث تعرض لعاصفة رملية في صحراء سيناء أجهزت على عدد كبير من رجاله ومئنته وجماله، وإضافة إلى ذلك فقد شيركوه - في أحداث استرداد عموري وشاور جزيرة المحلة منه - ما يقارب خمسمائة من فرسانه على حد وصف وليم الصوري^(١)، علاوة على السهولة التي عبر بها جيش شيركوه للنيل بعكس حال جيش عموري وشاور في عبورهما له، بما ينم عن قلة عدد الأول وخفته بعكس الحال مع المعسكر الثاني.

كما وصلت الملك عموري أمداداً من الفرسان الذين جاءوا قبل المعركة بقليل^(٢)، على حين كان شيركوه يفكر هو ورجاله في العودة إلى بلاد الشام بعد فشل شيركوه في التصالح مع شاور وتأليه على عموري والاتفاق سوياً للقضاء عليه^(٣)، ومن جهة أخرى تشير الصورة التي انسحب بها جيش عموري عقب المعركة إلى كثرة عدد جيشه، ربما بصورة منعت شيركوه من التعرض له برغم انسحابه من بين تلين يسيطر عليهما شيركوه، كما استغرق انسحاب جيشه من أرض المعركة ما يقارب ثلاثة أيام وهي مدة طويلة لمثل هذا العدد الصغير^(٤)، أما الأمر الأكثر أهمية، فهو عدم مهاجمة شيركوه للقاهرة عقب انسحابه من البابين، ويُعلّق ابن تغري بردي على ذلك بأنه كان بإمكان شيركوه امتلاكها إذا ما تحرك إليها ولكنه انسحب إلى

(١) عن تفاصيل الأحداث التي جرت بين عموري وشيركوه في جزيرة المحلة التي يتضح من وصف وليم الصوري لها أنها تقترب من المنطقة التي تتفرع عندها الدلتا وكانت سبباً في نشأة الدلتا ذاتها انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٥٤-٥٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٤٤-٤٥، ٥٨، ٦١.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٨٣.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦٥-٦٦.

الإسكندرية^(١)، وكان تبرير هذا التصرف أنه لم يكن معه ما يكفي للاستيلاء على مدينة حصينة مثل القاهرة، سبق وجدّ في حصارها في الحملة السابقة بيد أنه عجز عن الاستيلاء عليها، فهذا وغيره يشير إلى أن جيش عموري كان يتفوق بشكل ما على جيش شيركوه من حيث الحجم وأن ما ذكره وليم الصوري عن ذلك لم يكن الحقيقة كاملة.

ويصف وليم الصوري أرض المعركة بأنها المنطقة الفاصلة بين الصحراء والأرض الخصبة، وتسمى بالبابين، وهي منطقة تتسم بكثرة رمالها وبكثرة الحفر بها وبانتشار التلال فيها، وعلى أية حال فإنها تبعد عن جنوب المنيا بحوالي عشرة أميال^(٢)، وقد حرص شيركوه على تعويض النقص في عدد جيشه باستخدام التكتيك العسكري الذي استخدمه نورالدين في معركة حارم التي حدثت في بلاد الشام منذ قليل، وهي خطة شائعة في حروب الأتراك، وإن لم ينتبه إليها الملك عموري ذاته، بل لم تتفهم بعض المصادر الإسلامية - وكذا المصادر الغربية - طبيعة هذا الأسلوب الحربي في بعض أجزاء وصفها لأحداث المعركة.

إذ كان من ضمن خطة شيركوه أن يسيطر على المرتفعات المحيطة بأرض المعركة ولذا فقد قسم جيشه إلى قلب وميمنة وميسرة، وأصدر أوامره إلى القلب بالنظاير بالفرار إذا هاجمه الفرنجة، فإذا عاد الجيش الفرنجي من المطاردة وجد رجالته بين قتيل وأسير، هذا في الوقت الذي يرتد فيه قلب جيش شيركوه المتظاهر بالفرار بحيث يوضع الفرسان الصليبيين بين فكي كماشة، أي بين ميمنة جيش شيركوه وميسرته من ناحية وبين قلب جيشه المرتد خلف فرسان الفرنج من ناحية أخرى، وذلك ما حدث تقريباً، أما الإشكالية التي تبرز في معالجة بعض المصادر فإنما في رؤية بعض تلك المصادر في انسحاب قلب شيركوه على أنه هزيمة، على حين

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٩.

(٢) تقع البابين على مسافة عشرة أميال إلى الجنوب من المنيا، وحوالي ثلاثمائة كيلو متر جنوب القاهرة. انظر:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٣.

أشارت مصادر أخرى إلى تعرض شيركوه للهزيمة في أول المعركة لتقسيمه جيشه إلى قسمين، أحدهما معه والآخر مع صلاح الدين، أو الاختلاف في إبراز تشكيلات الجيشين ووضع القيادات بهما وتفصيل أخرى في الخطة المقترحة، وأشارت أخرى إلى عدم حسم المعركة في يوم واحد بل امتدت أحداثها إلى أكثر من يوم، أما الأمر الأكثر غموضاً فهو إشارة وليم الصوري إلى أن المعركة لم تحسم لأي من الطرفين سواء لعموري أم لشيركوه، وإنما دارت حروب متفرقة هنا وهناك، ولم يعلم أحد لمن كانت الغلبة، هذا على الرغم من إجماع المصادر الإسلامية على أن الغلبة كانت لجيش شيركوه^(١).

أما عن تاريخ المعركة فقد دارت عنه أقوال كثيرة، ربما كان منبوعها أن ابن الأثير حددها مرة ٢٥ من جمادى الأولى في التاريخ الباهر، وحددها مرة أخرى ٢٨ من جمادى الآخرة في تاريخه الكامل^(٢)، ومن هنا نبع التردد والاختلاف بين من تبعه ممن نقل عنه، وقد تعرض لهذا الأمر كثير من المؤرخين المحدثين^(٣)، ويتفق الباحث مع

(١) عن اختلاف المصادر في الإشكاليات السالفة انظر: جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص ٤٦؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦٣-٦٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٥، الباهر، ص ١٣٢-١٣٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ٣٢٣-٣٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٤٨-٣٤٩؛ ابن أبيك: الدر المطلوب، ج٧، ص ٢٨؛ البنداري: سنا البرق، ص ٢٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٩؛ المقرزي: اتعاض الحنفاء، ج٣، ص ٢٨٣-٢٨٤؛ انظر أيضاً التحليل القيم لهذه الإشكاليات لدى:

فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص ٩٣-١٠٤. انظر أيضاً: Schlumberger, *Campaignes*, pp.138 -148.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٥، الباهر، ص ١٣٢.

(٣) وعن الذين تعرضوا لتاريخ معركة البابين بالمناقشة انظر:

Omran, "King Amalric and the Siege of Alexandria 1167", in *Crusade and Settlement*, Papers read at the first Conference of the Society for the Study of the Crusades and the Latin East and presented to R.C. Smail, (ed.) Peter W.Edbury, (University College Cardiff Press, 1985), p.191.

وأيضاً: فايز نجيب إسكندر: الصليبيون والفاطميون والزنكيون في معركة البابين، ص ٩٥. راجع أيضاً:

من رجب حدوثها في ١٩ من مارس ١١٦٧م/٢٥ من جمادى الأولى ٥٦٢هـ، وليس في ١٩ من أبريل ١١٦٧م/٢٥ من جمادى الآخرة، وذلك بناء على التحديد غير المباشر الذي ذكره وليم الصوري في ذكره لموعد المجلس الذي سبق المعركة بيوم وهو يوم الأحد الذي تنشد فيه ترنيمة "افرحي يا أورشليم" "Laetare Hierusalem Was Sun" وهو موافق ليوم ١٨ من مارس/٢٤ من جمادى الأولى وليس ١٨ من أبريل/٢٤ من جمادى الآخرة^(١).

ويؤيد ذلك أيضاً أن وصول شيركوه إلى أطفيح كان في أواخر ربيع الأول وأوائل ربيع الآخر ٥٦٢هـ أي خلال يناير ١١٦٧م، وقد أجمعت المصادر الإسلامية على بقاء شيركوه في الجيزة نيفاً وخمسين يوماً وهي المدة التي حدثت خلالها العمليات الحربية التي قام بها شاور وعموري للعبور إلى جانب النهر الآخر خلال أحداث المطاردة في صعيد مصر، وقد قدر وليم الصوري هذه المدة بأنها تزيد عن شهر أو أكثر، ثم كانت المطاردة عدة أيام آخر، فإذا حسبت هذه الأرقام التقريبية سيوضح أنها أقرب إلى ٢٥ جمادى الأولى بكثير عن جمادى الآخرة؛ لأن في الثانية تأخر شهراً كاملاً لم يرد ذكره لدى أحد ممن تعرض لهذه الأحداث، علاوة على تأكيد رنسمان عن سيرة حياة القديس برنارد st.Bernardi لحدوث معركة البابين في ١٩ من مارس/٢٥ من جمادى الأولى^(٢)، وعليه رجح الباحث هذا التاريخ.

وعند التعرض لنتائج المعركة الواقعية فإن وقعها كان شديداً على الجيش الصليبي بصفة خاصة، ذلك أن الملك عموري كاد أن يُدرك ويُؤسر خلال المعركة، وأسر من فرسانه حوالي سبعين فارساً وربما مائة على ما ذكر وليم الصوري تقريباً من البارونات كان من بينهم هيج صاحب قيسارية، أما شاور فقد قُتل من رجاله الكثيرون، بل ربما كان رجاله وقوداً لمعركة عموري ودروعاً اتخذها الأخير للتمكن

Rohricht, *Amalrich I*, pp.447-448; Schlumberger, *Campagnes*, pp.136, 142-143.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦١.

(٢) انظر: رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٠٥.

من شيركوه، أما جيش شيركوه فقد أشار وليم الصوري إلى فقدانه لألف وخمسمائة من رجاله وهو مما يُضاف إلى مبالغات وليم الصوري بشأن الأرقام الإسلامية لديه^(١)، ولكن التعليق الأخير على هذه المعركة يستوجب إعمال الذهن فيما حدث بالفعل وليس افتراض ما يمكن حدوثه.. فإذا كان عموري وشاور فشلا في هزيمة شيركوه في البابين، فلاريب أنهما لم يحسما الأمر حتى تلك اللحظة، بل إنهما عجزا بالفعل عن القضاء على شيركوه، وقد ساعدتهم ظروف صعيد مصر على دفعه إلى معركة كاد يُقضى عليه هو وجيشه فيها تماماً، ولكن كيف سيكون الحال إذا ما تمكن من الانتصار عليهما والإفلات منهما إلى أرض أرحب، بعيداً عن ضيق الخناق في الصعيد، باتجاه شيركوه على رأس جيشه إلى الإسكندرية؟

لقد أدى تحرك شيركوه إلى الإسكندرية إلى تعقيد مهمة عموري وشاور، وهي إخراج الأول من مصر وبخاصة بعد ما لقيه من جهد في أثناء مطاردته في صعيد مصر على مدار شهرين تقريباً، ولم يقد شيركوه بمهاجمة مدينة القاهرة على الرغم من أنها قلب مصر ومركز السلطة فيها، وكان لشيركوه فيها خبرات حربية سابقة، ولكنه قرر التوجه إلى الإسكندرية هذا على الرغم من أن الاستيلاء على القاهرة غاية ما يتمناه أياً من شيركوه أو عموري، ولكن الواضح أن عموري كان خائفاً من تعرض

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٥-٦٦. يعلق وليم الصوري على أن التركبولية ورجال شاور لم يكن لهم أي قيمة في المعركة، بل كانوا في أفضل الأحوال عبئاً على الملك. انظر عن معركة البابين أيضاً: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٩؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص١١٥؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٥، ٣٧٠، ٤٢٥. وعن هيج صاحب قيسارية انظر:

La Monte, "The Lords of Caesarea in the period of the Crusades", *Speculum*, 1947, pp.149-151.

وعن وجود هيج في وثائق المملكة في عصر عموري بوصفه شاهد عليها انظر:

Rohricht, *Regesta*, no.397, 400, 412, 413, 416, 422, 449; Muller, *Documenti*, p.11, no.9, p14, no.11; Roziere, *Cartulaire*, pp.262-268, no.144; Maragone, *Annales Pisani*, (ed.), M.L. Gentils, *RIS*, (Bologna, 1936), I, pp.309-310; Archives de L'Orient Latin, II B, p.140, no. 22.

القاهرة لأمر كهذا وإلا لما صار لوجوده أي نفع على الإطلاق، وعليه فإنه شدّد الحراسة عليها، ليس بفرق مصرية فحسب، ربما مخافة ميلها مع قوى شيركوه المسلمة، وإنما بفرق صليبية على رأسها هيچ دابلن أحد كبار بارونات المملكة.

ومن جهة أخرى أوكل عموري إلى بعض رجاله منذ البداية حراسة الجسر الذي يربط بين الجيزة والقاهرة، ولما لم يكن باستطاعة شيركوه محاصرة القاهرة دون عبور هذا الجسر فإن مهمة الاستيلاء عليها أو حصارها على الأقل كانت بالأمر العسير^(١)، أما الأمر الذي لا يستطيع الباحث البت فيه فهو الوقت الذي تحرك فيه شيركوه إلى الشمال، فلم تقدم المصادر ما يفيد ذلك، سواء أكان عموري هو الأسبق أم شيركوه، إلا إذا افترض الباحث أن جيش شيركوه كان صغيراً فاستطاع جمعه بسهولة بعد معركة البابين وأسرع به نحو الشمال، بينما ظل عموري يجمع في جيشه وجيش شاور ما يقارب ثلاثة أيام وتحرك به في اليوم الرابع^(٢)، ولذا فقد كان شيركوه أسبق في التحرك ومن ثم فلم يكن للملك عموري وشاور وجود في القاهرة خلال مرور شيركوه إلى الغرب منها في توجهه إلى الإسكندرية^(٣).

وعليه فإنه في ظل هذه الظروف لا يقبل الباحث قول ابن تغري بردي بشأن استفساره عن عدم توجه شيركوه إلى القاهرة وأنه لو فعل ذلك لاستطاع امتلاكها، وبخاصة أن أهل مصر ذاتهم كما تشير بعض المصادر المعاصرة، كانوا آنذاك يكرهون الأتراك ويودون لو شربوا دمائهم^(٤)، وبالتالي فإنه لم يكن له إلى القاهرة سبيلاً، مما دفع شيركوه إلى التحرك نحو الإسكندرية سالكاً طريق الفيوم إلى البحيرة وهناك أخذ معه ما يكفي من المؤونة من الغلال والمواشي ومنها رأساً إلى

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٥٦، ٥٨، ٦٥-٦٦.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٥.

(٣) قارن في ذلك ما ورد لدى حسن حبشي: نورالدين، ص١١٥، ٢٠٥، حيث يعطي دوراً كبيراً لوجود عموري في القاهرة وأبناء عن وصول قوات جديدة من المملكة؛ مما رفع من روح الفرنج المعنوية وعليه فقد قرر شيركوه الانسحاب إلى الصعيد.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٩. انظر أيضاً: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨، أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ٣٦٤-٣٦٥.

ولم يكن توجه شيركوه إلى الإسكندرية عشوائياً وإنما كان تصرفاً مدروساً، بل وقبل أن تُعرف نتيجة معركة البابين؛ إذ قدم إلى شيركوه قبيل نشوب معركة البابين بعض نواب الإسكندرية، وعلى رأسهم الشريف الإدريسي الجغرافي الحلبي المعروف، نيابة عن ابن مصال أحد أحفاد الوزير الأسبق ابن مصال، ثم الرشيد بن الزبير متولي ديوانها وغيرهم من وجوه الإسكندرية الذين عرضوا المساعدة على شيركوه بالمال والرجال، بل وأتوه ببعضها خلال وجوده في الصعيد قبل البابين^(٢)، أما ما دفع أهالي الإسكندرية إلى ذلك فله أكثر من داعي، أولها ربما بسبب طموح بعض هؤلاء في الحصول على الوزارة بمساعدة شيركوه، ومن هؤلاء ابن مصال سالف الإشارة، وثانيها لأن المساعدة التي يقدمها أهل الإسكندرية لشيركوه فإنها ضد شاور الذي استعان بالفرنج لمحاربة المسلمين وبذا كان يضيع مصادر المسلمين المالية على غير المسلمين من الفرنج، بما أنفقه عليهم من هدايا وضرائب سنوية، وثالثها لأن رعايا الإسكندرية كانوا مثل شيركوه سنةً بينما كان شاور شيعياً، والأكثر أهمية أنهم على خلاف أهل القاهرة يرحبون بمساعدة شيركوه^(٣).

ومن الناحية الواقعية لم يكن بإمكان شيركوه أن يرفض عرضاً كهذا، بل كان عرضاً مغرياً، يُمكنه من الاستقلال بمدينة مصرية كبيرة مثل الإسكندرية، بما لها من حاضرها التجاري على مستوى العالم، إضافة إلى قوة المدينة أمام أي حصار طويل المدى، ثم إنها تتيح له إمكانية منع وصول أية إمدادات إلى الملك عموري عن

(١) البنداري: سنا البرق، ص ٢٠-٢١؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٢٨٤؛ المقرئزي: التاريخ المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوى، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص ٥٣٤؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٥-٩٦؛ الباهر، ص ١٣٣؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٧٣؛ المقرئزي: المقفى، ج١، ص ٥٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٤٢٦ ٤٢٧ ٣٦٦. (رواية ابن أبي طي). انظر أيضاً:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.447-448.

(٣) Omran, *King Amalric*, p.192.

طريقها، سواء من المملكة أم من الغرب الأوربي وبيزنطة، وقد صدق رعايا الإسكندرية في وعودهم، حينما أمده بالمال اللازم وبالأسلحة^(١).

لم يكن أمام عموري وشاور سوى التحرك وبدء استعدادات جديدة لمواجهة، ويقدم وليم الصوري تفاصيل أكثر دقة عن غيره وبخاصة في أثناء هذه الفترة التي سبقت ترك شيركوه للإسكندرية، ويتضح من واقع رواية وليم الصوري أن الملك عموري لم يُطبق حصاره على المدينة مباشرة وبصورة أقرب وهي إشارة محيرة؛ إذ أقام الملك معسكره بين تروجة^(٢) ودمنهور، على بعد ثمانية أميال تقريباً من الإسكندرية، حقا أن عموري أحكم إغلاقه للمنافذ البرية والنيلية المؤدية إلى المدينة ومنع عنها كافة الإمدادات وفرض رقابة صارمة على الداخل والخارج إليها، ولكنه اتخذ موقعاً بعيداً في حصاره لشيركوه^(٣)، ويُرجح محمود عمران أن الملك عموري لم يكن متأكداً من مهاجمة شيركوه للإسكندرية، وظل في ذلك الموقع منتظراً تقارير كشافته عن موقف جيش شيركوه وموضعه.

كما يُرجح عمران خوف عموري من انخفاض منسوب المياه في قناة الإسكندرية بما لا يسمح بمرور سفن الملك بها؛ إذ يظل مستوى الأمطار منتظماً حتى فيضان النيل في أغسطس، وبما أن معركة البابين حدثت في ١٩ من مارس، فلا ريب أن القناة كانت تقترب آنذاك من أقل نقطة انخفاض لها، ولذا فربما خشي عموري من

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٧٣؛ المقرئ: المقفى، ج١، ص٥٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٤٢٦. وقد أشار فيليكس فابري عرضاً إلى عملية الحصار التي فرضها عموري على الإسكندرية، وأنه حصل من شاور على ألف قطعة من الذهب لطرده المسلمين الشاميين منها وإعادة الإسكندرية إليه. انظر:

Fabri, *The book of Wandering*, p.329.

كما أشار بنيامين التطيلي إلى ما زخرت به الإسكندرية من كافة أنواع المتاجر وبتردد أمم كثيرة عليها من أجل التجارة. انظر:

Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, p.76.

(٢) تروجة بالفتح ثم بالضم وسكون الواو والحيم هي قرية في مصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٧.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٦.

جنوح سفنه، أما الفرضية التي ختم بها محمود عمران تفسيره فهي احتمال اعتقاد عموري أنه كان أقرب إلى الإسكندرية عن الحقيقة التي ساقها وليم الصوري، بأن عموري أقام معسكره على بعد ثمانية أميال من الإسكندرية^(١)، ومما يدفع الباحث إلى تأييد الفرضية الأخيرة أن عملية الحصار كانت محكمة بشدة، بحيث أتت أكلها وبدأ شيركوه يشعر في غضون شهر بقلّة الإمدادات التي تصله عن طريق النيل من الصعيد، وبازدياد تضيق عموري على المدينة ذاتها، ولأجل ذلك وغيره قرر شيركوه ترك المدينة في قيادة صلاح الدين وخرج هو من الإسكندرية تحت جنح الظلام إلى الصعيد مرة أخرى.

ويصف وليم الصوري قرار شيركوه بأنه هروب، والواقع أنه لم يكن كذلك وإنما محاولة ذكية لم يفهم مغزاها سوى قلة أنذاك، ولاريب أن هذه الحركة لم تغب عن بال عموري، ذلك أنه تتبع جيش شيركوه حتى القاهرة، ولكنه توقف عند ذلك الحد، أما الحكمة من رحيل شيركوه إلى الصعيد، فإنما خوفه من حصار جيشه بالكامل وفيه المريض والجريح^(٢)، ومن ثم لا يستطيع أخذه كله أو إبقائه كله، إضافة إلى توافر فرصة للخروج من المدينة في ضوء وجود عموري على مسافة منها، ومن ناحية أخرى سيكون على عموري مطاردة جيشين والقتال على جبهتين في آن واحد، لعل أخطرها مطاردة شيركوه مرة أخرى في الريف المفتوح في صعيد مصر، أما الأسهل بالنسبة للملك عموري فإنما حصار الإسكندرية^(٣).

(١) Omran, *King Amalric*, p.192. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.449-451.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٧. انظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٩٥-٩٦، الباهر، ص١٣٣-١٣٤؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٨٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٠-٢١. وأيضاً:

Omran, *King Amalric*, pp.192-193.

(٣) Omran, *King Amalric*, pp.192-193.

ويشير رنسمان إلى أن شاوور نصح الملك عموري بعدم مطاردة شيركوه في الصعيد؛ لأن شيركوه لم يرد سوى نهبه، أما استعادة الإسكندرية فإنها مهمة لهما سوياً أكثر من مدن الصعيد. راجع: رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٠٦.

وأما السبب المباشر الذي جعل عموري يقرر العودة إلى الإسكندرية والعدول عن مطاردة شيركوه فيُورد وليم الصوري ما يفيد بوقوف الملك عموري على الضائقة التي تمر بها الإسكندرية، وبأنه سوف يتلقى مساعدة بعض أشرفها من الداخل في سبيل استيلائه عليها^(١)، هذا من الناحية الظاهرية، ولكن الأكثر عمقاً هو إدراك كل من عموري وشاور لحقيقة ضعف المدينة بالفعل ومن ثم بإمكانهما إذا ما شددوا الحصار عليها أن يُرغمَا من بها على التسليم عندها سوف يأتيهم شيركوه بنفسه إليهم.

وبناء على ما سبق عاد عموري إلى الإسكندرية وفرض عليها الحصار ولكنه ضيقه هذه المرة، وساعده على ذلك أن المدينة كانت محاصرة من قبل ولم تصلها أية إمدادات بفضل إحكام سيطرته البرية والنيلية عليها، كما استخدم عموري آلات الحرب الثقيلة كأبراج الحصار الضخمة في مهاجمتها، علاوة على وصول نجادات بحرية من المملكة، وصلت مُسرعة على أمل مساعدة عموري في الاستيلاء على هذا الميناء المهم^(٢)، وكان للبيازنة دور كبير في عملية الحصار، بحيث يقرر روهريشت Rohricht أنهم كانوا يستحقون فيما بعد الحصول على الامتيازات الكثيرة التي منحهم الملك إياها^(٣)، وترتب على جهود الملك عموري الجادة في عملية الحصار أن ضاق الخناق على صلاح الدين، وبينما يقر وليم الصوري أن الأهالي ضجروا من طول الحصار، وأنهم فضلوا تسليم المدينة إلى عموري وشاور والتحول إلى رقيق عن الموت هم ونساءهم وصغارهم، تُقرّ المصادر العربية أنهم وقفوا إلى جانب صلاح الدين حتى النهاية، إلى أن أدرك هو ذاته الخطر المحدق، فراسل شيركوه بغرض

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦٧-٦٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٧٠.

(٣) انظر في ذلك:

Rohricht, *Regesta*, no.412,449, 438,467, 541, 571, Maragone, *Annales*, in *Mon. Germ. SS.*, XIX, 257; Muller, *Documenti*, p.15, no.12; Jaffe-Lowenfeld, *Regesta*, no.13375-13042, 15553, 15556-15557. See also: De Vògue, *Les Eglises de La Terre Sainte*, (Paris, 1860), p.221.

إنجاده بالمال والرجال^(١).

كان شيركوه آنذاك في الصعيد في مدينة قوص يجبي الأموال، وحينما وصلته الأنباء السيئة عن حال صلاح الدين في الإسكندرية قرر الرحيل إلى الشمال في ٢٧ من يوليو ١١٦٧م/٨ من شوال ٥٦٢هـ، ثم تفيد المصادر بأن شيركوه سلم الإسكندرية للمصريين في ٤ من أغسطس/منتصف شوال، وهذا يعني أن المفاوضات لم تستغرق وقتاً، بل لم تأخذ أسبوعاً تقريباً لإنهاء حالة الحرب حول الإسكندرية، مما يستدعي البحث عن أسباب الصلح وشروطه ونتائجه.

يقود وليم الصوري الاتجاه الذي يجعل من عملية الحصار المحكمة سبباً في الضغط على صلاح الدين في الإسكندرية، ثم قدوم شيركوه وفشله في حصار القاهرة، التي أحكم عموري حمايتها من قبل، ولذا فقد قرر شيركوه طلب الصلح عن طريق هيج صاحب قيسارية الذي كان لا يزال في أسره^(٢)، أما المصادر الإسلامية فمع الرأي الذي يجعل من محاصرة شيركوه للقاهرة وضغطه عليها دور كبير في انسحاب شاور عن الإسكندرية وطلب الصلح من شيركوه، بعد أن رشا بعض رجاله من التركمان لإقناعه بالرحيل عن مصر، وأن الملك عموري تصرف بينهما بوصفه وسيطاً^(٣)، وهو ما نكاه محمود عمران^(٤)، بيد أن الاقتراح الأخير يتغاضى عن عوامل الصراع الحقيقية، وهي وجود كل من عموري وشيركوه في مصر وليس

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٦٧-٧٠؛ البنداري: سنا البرق، ص ٢١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٣٦٦.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٧٣-٧٦. انظر أيضاً:

Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; King, *Hospitallers*, p.92; La Monte, *The Lords of Caesarea*, p.150; Baldwin, *The Latin*, p.553.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ٩٦، الباهر، ص ١٣٤، البنداري: سنا البرق، ص ٢١؛ ابن شداد: النوادر، ص ٢٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص ٣٦٧، ٤٢٧-٤٣٠؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٨٥؛ عمارة اليميني: النكت العصرية، ص ٧٩-٨٠، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٧٩؛ ابن ظافر: أخبار الدول، ص ١١٥؛ ابن الفرات: تاريخه، ج١، م٤، ص ٥-٦؛ ابن أبيك: الدر المطلوب، ج٧، ص ٢٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٤٩.

(٤) Omran, *King Amalric*, p.194.

وجود شاور بها أو صراعه وحده مع شيركوه.

وبنظرة فاحصة إلى تفاصيل الأحداث التي قادت إلى عقد الصلح فإنه بالإمكان الاقتراب من الحقيقة قدر المستطاع؛ إذ يشوب رواية وليم الصوري بشأن تضيق عموري الشديد على الإسكندرية شيء من المبالغة وربما التناقض، مما يتضح من تقديره لحجم الجيشين المتصارعين داخل المدينة وخارجها، فهو يشير بداية إلى أن شيركوه لم يترك مع صلاح الدين سوى ألف فارس وأن المدينة كانت تجارية الطابع ولم يكن لأهلها دراية بالحرب وحمل السلاح، بل إن أغلب من كان مع صلاح الدين إنما فرسان من الجرحى والمرضى، وأما المفارقة فإنما في عودة وليم الصوري فيما قرره مُقَدِّراً جيش صلاح الدين بخمسة آلاف من المشاة ممن يقدرّون على حمل السلاح، هذا على الرغم من عدم وصول صلاح الدين أية مساعدة سواء من نورالدين في دمشق أم من شيركوه.

أما الجيش الصليبي فقّره وليم بحوالي خمسمائة فارس وأربعة أو خمسة آلاف من المشاة، بينما لم يوضح هنا طبيعة تكوين هذا العدد مثلما فعل في معركة البابين، كما لم يشر إلى حجم مشاركة شاور معه في الحصار، وتتمثل المفارقة في الزيادة التي أشار إليها وليم؛ إذ لم يكن لدى عموري بعد معركة البابين سوى مائتين وأربع وسبعين فارساً تقريباً، بعد فقده لمائة فارس في معركة البابين^(١)؛ إذ يصعب فهم ازدياد عدد الفرسان والمشاة بهذه السهولة، لأنه لم يكن باستطاعة المملكة أن تتخلى عن الفارق في القوة الذي بعثت به إلى الملك - على حد إشارة وليم الصوري - على الرغم من أن المملكة لم تستطع تعبئة نصف هذا العدد في أثناء خروج عموري بالحملة، كما اقتضت الظروف الراهنة الحرص من تحركات نورالدين الذي جمع جيوشه وجيوش الموصل وقام خلال يوليو/شوال بمهاجمة بعض أعمال طرابلس^(٢).

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٦٦-٦٧، ٧١، ٧٧-٧٨.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص٢٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٩٦.

ومن جهة أخرى تشير توابع الصلح إلى أن شاور كان متضامياً بشدة من أهل الإسكندرية بسبب مساندتهم لصلاح الدين، ربما لما سببه ذلك من مكابدة له في حصارها^(١)، علاوة على سرعة استرداد المدينة لنشاطها التجاري على ما ذكر بنيامين التطيلي الذي زارها خلال تلك الفترة^(٢)، وهذا يُوحى بأن الأضرار التي لحقت بها من جراء الحصار لم تكن كبيرة، أما الصورة التي رُسمت لشيركوه من جمعه لأعداد كبيرة من الصعيد من العرب واتجاهه بهم لمحاصرة القاهرة^(٣)، فإنما مبالغة تستدعي الحذر في التعامل معها، وذلك لأن إتمام حصار خطير للقاهرة يعني وقتاً أطول مما أتيح لشيركوه، لأنه خرج من قوص في ٢٧ من يوليو/ ٨ من شوال وسلم الإسكندرية في ٤ من أغسطس/منتصف شوال^(٤)، بما يعني أنه لم يكن لدى شيركوه وقتاً للقيام بأي حصار للقاهرة في ضوء الأخذ والرد في عملية المفاوضات بين القاهرة والإسكندرية، وبخاصة أنه إذا أتيحت لشيركوه فرصة للاستيلاء على القاهرة لما أضعها، وإنما يمكن اعتبار تحركه إليها إشارة بالخطر، كان ينبغي أن يحذرهما عموري وشاور، وبخاصة أن ميزان القاهرة يفوق في قوته ميزان الإسكندرية، وإذا كان لدى عموري وشاور في الإسكندرية صلاح الدين وألف فارس تركماني فلدى شيركوه في القاهرة أكثر منهم من المصريين والفرنج وفيها أيضاً العاضد الفاطمي، خليفة الدولة الشرعي. ومن جهة ثالثة تُعَلِّق بعض المصادر أهمية كبيرة على الدور الذي قام به نور الدين في بلاد الشام للضغط على عموري في مصر، حيث حشد قواه مع قوى أخيه قطب الدين في الموصل وهاجم بعض القلاع في إقليم طرابلس في شوال "فاجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وأسروا وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص ٧٩؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٨٧-٢٨٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٣٦٦-٣٨٣، ٤٢٧-٤٢٨، ٤٢٩-٤٣٠؛ عمارة اليميني: النكت العصرية، ص ٨٧-٨٨.

(٢) Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, p.76.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٣٧٠، ٤٢٧-٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٣٤٩؛ أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص ٢٩.

(٤) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٨٥-٣٨٦؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٣٦٦.

وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تُخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها، فقصدها نورالدين فوصلها من الغد وخرّب سورها جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدد في العسكر خُلف أوجب التفريق فعاد^(١)، ولكن كما توضح الرواية لم تكن هجمات خطيرة مثل هجمات حارم وبانياس من قبل، والأهم من ذلك أن الحملة انتهت باختلاف قادة الجيش، ولذا فلم تكن ثمة خطورة تجعل عموري يتأثر بها ويدخل في مفاوضات الصلح.

على هذا الأساس كان موقف الجانبين متساوياً تقريباً، بل كان الطرفان يعانيان من المشاكل ذاتها في الضجر من طول العمليات القتالية التي بدأت منذ ربيع الآخر وحتى شوال وإن كان موقف عموري أضعف قليلاً؛ لأن شيركوه كان مجرد قائد لأمير جليل من قواد كثيرين، بينما كان عموري ملك المملكة، ولم يكن يصلح غيره للقيادة وتدبير شئون المملكة وبقية الإمارات الصليبية، بيد أن ذلك لم يكن ليدفعه لتقديم تنازلات لشيركوه، وبناء على ذلك كان حل المشكلة كما ألمحت بعض المصادر في يد الداهية شاور الذي كان اضطرابه شديداً حينما علم بمشاركة شيركوه على القاهرة، بحيث ترك حصار الإسكندرية، ربما تركه في مسئولية عموري، وتحرك هو لمواجهة شيركوه بأسلوب دبلوماسي؛ إذ استمال بعض رجاله ليغروا شيركوه على طلب الصلح ولم تكن تلك المرة الأولى التي يخون فيها التركمان ثقة شيركوه فيهم؛ إذ سبق وقاموا بهذا الدور في الحملة السابقة، ولما كان الجيش في حاجة إلى الراحة فإنه ضغط عليه لأجل ذلك^(٢)، ولاريب أن المال لم يكن يهم شيركوه بقدر سلامة قواته في الإسكندرية، وذلك بما يتوافق أيضاً مع مصالح عموري في ضرورة العودة إلى المملكة، ولكن

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٧٢-٣٧٥. انظر أيضاً: ابن العديم: زبدة الطلب، ج٢، ص٣٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٩٦، الباهر، ص١٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٧٠، ٤٢٧-٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٩.

كيف اقتنع عموري بقبول عملية الصلح؟

لقد كان بوسع الملك أن يفرض الآن في ظل هذه الظروف واقعاً جديداً يختلف عن المسار الذي آلت إليه الحملة السابقة، بأن يخرج من مصر دون أي مميزات، وإنما قرر في دهاء أن يعقد صلحاً تقليدياً مع شيركوه، على غرار الصلح السابق عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، بحيث يُرضي شيركوه ولا يحفزَه على رفضه، وبخاصة أن الأخير فكر في الإيقاع بين عموري وشاور، وذلك باستخلاص يمين من عموري بألا يهاجم مصر مرة أخرى، فاضطر الملك إلى بذله مخافة اجتماع شيركوه وشاور عليه، أما شروط المعاهدة التي عقدها مع شيركوه فتقتضي بانسحابهما من مصر معاً، وفك الحصار عن الإسكندرية وإطلاق سراح جنوده منها، وتبادل الأسرى، وعدم معارضته في طريق عودته، وأن يحصل شيركوه على غرامة من شاور جزاء جميع ما أنفقه، ويؤكد قبول شاور لهذه الشروط بالذات أنه كان البادئ في استهلال المفاوضات، على أية حال حصل شيركوه على خمسين ألف دينار أما عموري فحصل على ثلاثين ألف دينار^(١).

كان ذلك الاتفاق التقليدي بين عموري وشيركوه، وأما الواقع الجديد الذي فرضه عموري على شاور وربما دون علم شيركوه فهو عقده لاتفاق آخر مع شاور كان نتيجاً لانتصاره الدبلوماسي في مصر، بل ربما كان حصيلة جهده في محاولاته

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٧٦.

أضاف وليم الصوري أن الملك عموري اشترط خضوع الإسكندرية له ورفع علمه عليها، ولم تنوه المصادر الإسلامية بذلك، وإنما أشارت إلى تسليم شيركوه الإسكندرية للمصريين وليس إلى عموري. انظر: البنداري: سنا البرق، ص ٢١؛ ابن شداد: النوادر، ص ٢٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٨٥-٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق ٢، ص ٣٦٦؛ ابن الوردي: تاريخه، ج٢، ص ١١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٤٩.

ويشير ابن تغري بردي إلى أن شاور منح شيركوه مالاً وإقطاعاً في مصر، وليس لذلك سند في غيره بل ويتنافى مع كمّ الحقد الذي كنهه شيركوه له، بحيث كان يهاجم شاور في كل مناسبة، وقد أدى ذلك إلى قيام شاور مراسلة نور الدين على مال سنوي، مقابل صرفه لشيركوه عن أحداثه التي يهاجم فيها شاور وتظهر رغبته في العودة إليها والأخذ بثأره من شاور. انظر: ابن الفرات: تاريخه، ج١، م ٤، ص ٥-٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٨٧.

للاستيلاء على مصر بداية ثم تحييدها بعدئذ، وأما شروطه فتتمثل في أن يُصبح للفرنج شحنة في القاهرة - أي حامية عسكرية - يقيمون بها وتكون بأيديهم أبوابها وأسوارها، بحجة منع نورالدين من إرسال جنوده مرة أخرى إليها، كما قرر شاور للملك عموري مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر، بل تهادى الأمر إلى إبقاء بعض الفرنج ممن أقام في دور القاهرة وبيوتها على وضعه، بحيث عاد مع الملك من عاد وبقي من فضل البقاء، وكان لهؤلاء دور في تحريض الملك فيما بعد على الإتيان إلى مصر وترغيبه في الاستيلاء عليها، وبعثوا إليه بتقارير خطيرة عن أعمالها وأقاليمها وموارد دخلها، بحيث استطاع الملك فيما بعد وبسهولة أن يوزع تلك الأقاليم على من سيشاركونه حملته القادمة^(١).

مثّلت هذه المعاهدة قمة النفوذ الذي وصل إليه عموري في سياسته الخارجية في مصر، مع مراعاة أنه لم يتعرض لضربة قاضية في بلاد الشام كما حدث من قبل، وبالرغم من ذلك فإن رنسمان يقر بأنه كان بوسع عموري الحصول على شروط أفضل بعد صلح الإسكندرية، ولكنه لم يخاطر إلى أبعد من ذلك في مصر، حيث طال غيابه بها ما يزيد عن خمسة أشهر تقريباً، ولذا فقد كان في عوز لإعادة ترتيب وسائل الدفاع عن مملكته، خاصة عقب تحركات نورالدين الأخيرة^(٢)، كما يُعلق بلدوين Baldwin على وضع المملكة في مصر آنذاك بأنه أخذ في الصعود، بيد أن ضعف مصر كان يقابله الطبيعة غير الثابتة لدفاعات الفرنجة في بلاد الشام، مما أذن لبيزنطة بالتدخل^(٣)، أما روهرشت فيُلح إلى أن وجود عموري في مصر بعدئذ كان ظاهرياً لا واقعياً^(٤)، ولعله كان يستند إلى محاولات بعض الأفراد المصريين الاتصال بنورالدين من داخل مصر ومن هؤلاء الكامل بن شاور وغيره ممن فضل التعامل مع السنة على

(١) عن الاتفاق الثاني المعقود بين عموري وشاور انظر: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٤٩-٣٥٠؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٢٨٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٤٥.

(٢) رنسمان: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٠٨.

(٣) Baldwin, *The Latin*, p.554.

(٤) Rohricht, *Amalrich I*, p. 452.

التعامل مع الصليبيين، وعلى الرغم من ذلك فقد ضرب شاور بذلك عرض الحائط في محاولاته للاحتفاظ بمنصبه أياً كانت الوسيلة^(١)، وتشير بعض المصادر الأوربية إلى أن شاور لم يكن مخلصاً أيضاً مع الملك عموري ذاته، حيث إنه بعث بالأموال المقررة عام واحد فقط إلى المملكة، ثم خدعها بعدئذ بإرسال مبالغ من النحاس المغطاة بطبقة مذهبة^(٢)، وإن لم يجد الباحث إشارة إلى شيء من ذلك لدى وليم الصوري الذي ربما استند إليه في تبريره لتصرف الملك بالقيام بحملة رابعة مفاجئة على مصر فيما بعد.

ولعل أهم ما دونته المصادر الإسلامية عن نتائج هذه الحملة هي ازدياد قوة الطمع في مصر، سواء من المعسكر الصليبي أو الإسلامي^(٣)، لاسيما أنهما بقيا بها مدة طويلة، كانت البلاد رهناً لأي إجراء يتخذه الطرفان، بل إن قصر الخليفة - قدس أقداس الفاطميين - أصبح معروفاً لدى الصليبيين^(٤)، ناهيك عن أبواب القاهرة وأسوارها وقلعتها، والقرى والمدن التي دارت بها العمليات الحربية، كل ذلك كان في متناول رجال الملك عموري وحفظوه عن ظهر قلب، كما لمسوا الضعف الشديد للقوة العسكرية المصرية، بحيث عجزت بمحالفة الصليبيين عن القضاء على شيركوه وهو في شذمة من رجاله، فما بالنا إذا ما حاربت وحدها شيركوه بعدئذ، ولذا فقد كان

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٤٥. راجع كذلك:

Rohricht, *Amalrich I*, p.556.

(٢) Albericu, (Mon.Germ.SS, XVIII) (Coated from: Rohricht, *Amalrich I*), p.556.

وبينما يشير أرنول إلى أن المبلغ عشرين ألف دينار فإن رنسمان يشير - عن روبرت التوريني - إلى أنه خمسين ألفاً تدفعها الإسكندرية، إضافة إلى سبعة وخمسين أخرى يحصلون عليها من القاهرة. انظر:

Ernoul, *Chronique*, p.25.

وأيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٠٨-٦٠٩.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص٢٤٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص٣٦٧.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٥٨.

عموري يمر بلحظات انتصار وقتي، لم يكن ليبقيها سوى يقظة حذرة في رصد أي تغيير يطرأ على مجريات الأمور في مصر، بخاصة إذا ما كان في غير صالحه. أما عن المكاسب اللحظية فيؤكد عمارة اليمني - الشاعر والمؤرخ المعاصر والمقرب من بلاط شاور - اغتراف الملك أموال كثيرة من دخل مصر خلال وجوده بها^(١)، ويكفي عموري فخراً لهذه الحملة فرضه لنوع من الحماية على خلافة الفاطميين بالقاهرة، وهو إنجاز لم يكن في حلم بلدوين الأول أن يحققه في منامه، وبعدها عاد الملك إلى المملكة، حيث رافقه شاور حتى بلبيس ثم تحرك الملك وحده إلى المملكة، حيث وصل عسقلان في ٢١ من أغسطس ١١٦٧م/٤ من ذي القعدة ٥٦٢هـ، بينما وصل شيركوه إلى دمشق في ٤ من سبتمبر ١١٦٧م/١٨ من ذي القعدة ٥٦٢هـ، وبذا انتهت المرحلة الأولى من صراع الملك عموري على مصر، التي اضطر خلالها إلى التحرك نحوها وإن لم يكن بيده روح المبادرة، بل كان يتلقاها من الخارج دائماً، وسوف يغلب على سياسته بعدئذ اتخاذه لتلك الروح إضافة إلى وقوف بيزنطة إلى جانبه.

(١) عمارة اليمني: النكت العصرية، ص ٧٩-٨٠. وعن نجاح حملة الملك هذه المرة انظر تعليقات كل من:

La Monte, *The Lords of Caesarea*, p.150; Baldwin, *The Latin*, pp.552-553; Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; King, *Hospitallers*, p.92; Rohricht, *Amalrich I*, pp.450-456.